أنواع القصة فى القرآن الكريم عناصرها وأغراضها

أولاً: أنواع القصة في القرآن الكريم:

لقد استخدم القرآن – في أغراضه الدينية البحتة – كل أنواع القصة: القصة التاريخية الواقعية المقصودة بأماكنها وأشخاصها وحوادثها . والقصة الواقعية التي تعرض أنموذجاً لحالة بشرية، فيستوي أن تكون بأشخاصها الواقعيين أو بأي شخص يتمثل فيه ذلك الأنموذج، والقصة المضروبة للتمثيل ، والتي لا تمثل واقعة بنفسها، ولكنها يمكن أن تقع في أية لحظة وأي عصر من العصور[٤٨] .

١ـ القصة التاريخية:

قبل الحديث عن القصة التاريخية في القرآن الكريم، يجب أولاً أن نوضح مفهوم التاريخ في القرآن، " فالتاريخ " أو بتعبير القرآن: " أيام الله " يذكر في موضعين: في سورة إبراهيم الآية الخامسة ، وفي سورة الجاثية الآية الرابعة عشر ، هو ثالث مصادر المعرفة الإنسانية بناءً على ما جاء في القرآن، فمن أهم أصول التعاليم التي جاء بها القرآن أن الأمم تحاسب بمجموعها . وأن العذاب يعجل لها في الحياة الدنيا بما اكتسبت من سيئات، ولكي يؤكد القرآن هذا المعنى فإنه دائب الإشارة إلى الأمم الخالية، داعياً إلى الاعتبار بتجارب البشر في ماضيهم وفي حاضرهم، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (سورة إبراهيم:٥)، ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (سورة آل

عمران:١٣٧)، ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة آل عمران من آية ١٤٠)، ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (سورة الأعراف آية ٣٤).

وهذه الآية الأخيرة مثل من أمثلة الأحكام التاريخية العامة يتجلى فيه التعيين والتحديد، وهى في صيغتها البالغة الإيجاز توحي إمكان دراسة حياة الجماعات البشرية دراسة علمية باعتبارها كائنات عضوية، وعلى هذا فمن يزعم أن القرآن يخلو من بذور المذهب التاريخي يكون على ضلال مبين، وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن خلدون في تعريفه قد دان بالجانب الأكبر مما استوحاه فيها لما استوحاه من القرآن، بل هو مدين أيضاً للقرآن إلى حد كبير حتى في أحكامه على الأخلاق والطبائع

على أن عناية القرآن بالتاريخ بوصفه مصدراً من مصادر المعرفة الإنسانية تذهب إلى أكثر من مجرد الإشارة إلى تعليمات تاريخية، فقد وضع قاعدة من أعمق مبادئ النقد التاريخي، وبما أن التدقيق في رواية الحقائق التي تكون مادة التاريخ شرط لا غنى عنه بوصفه علماً، وبما أن رواية الأخبار على وجهها الصحيح متوقفة على رواتها كل التوقف، فإن أول قاعدة من قواعد النقد التاريخي هي القاعدة التي تقدر أن أخلاق الراوي عامل مهم في الحكم على روايته . وفي هذا يقول القرآن " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ " [٤٩] .

أما تفسير التاريخ من خلال القصص القرآني فينبني على أن الحاضر هو نتيجة الماضي، وأن المستقبل متوقف على الحاضر: ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ (سورة الرعد: من آية ١١) .

ومن المستشرقين من لا يعتبر القرآن قصة من أخبار مصدراً تاريخياً يمكن

الاعتماد عليه، وذلك لخلو هذه الأخبار من التفاصيل، ومما يحددها في الزمان والمكان، وعدم اتفاق بعضها مع ما جاء في كتب العهد القديم والجديد، وكتب التاريخ القديمة .

الحقيقة أن هذا لا ينافي صدق القرآن أو صحة أخباره، حيث إن التفاصيل التاريخية ليست من المقاصد التعليمية في قصص القرآن، لأن قرب الحادثة أو بعدها في الزمان والمكان، لا يؤثر فيما تحمل من عبر، ما دامت تلك الحوادث نابعة من غرائز الإنسان، مرتبطة بما في كيانه من نوازع الاستقامة والانحراف، قائمة على طريق الإنسانية التي لا تتغير في جوهرها بتغير الأجيال فالقرآن الكريم لا يذكر قصة لبيان تاريخ حدوثها، ولا لأجل التفكه بها، أو الإحاطة بتفاصيلها، وإنما لأجل العبرة والموعظة والهداية: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ (سورة يوسف من آية ١١١)، ولبيان سنن الاجتماع: ﴿ سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ (سورة غافر من آية ٨٥) .

ومن المؤرخين النابهين من لا يذكر من وقائع التاريخ إلا ما يستنبط منه الأمور الكلية، والأصول العامة، ولا يحفل بالجزئيات لما يقع فيها من الخلاف الذي يذهب بالثقة، ولما قراءتها من الإسراف في الزمن، فلا يكون عمله عرضة للتكذيب والطعن كما هو الشأن في أكثر المصنفات التي تستقصى الوقائع الجزئية [٥٠] .

أما إذا ورد في كتب التاريخ القديمة ما يخالف بعض هذا القصص القرآني، فعلينا أن نجزم بأن ما أوحاه الله إلى نبيه، ونقل إلينا بالتواتر الصحيح، هو الحق . وما خالفه هو الباطل، وناقله مخطئ أو كاذب فلا نعده شبهة على القرآن، لأن حال التاريخ القديم لم يكن من الدقة والتحري والضبط بحيث يكون حجة تعتمد في هذا المجال، إذ لا رواية يوثق بها للمعرفة التامة بسيرة رجال سندها، ولا تواتر يعتدّ به [٥١].

أما عدم اتفاق بعض القصص القرآني مع ما جاء في كتب العهد القديم فإن القرآن – بوصفه سماوياً سلم من التبديل والتحريف بشهادة الباحثين المخلصين

للحقيقة من غير المسلمين – جاء مصدقاً لما في التوراة والإنجيل المنزلين من عند الله، وكاشفاً عن الحق فيهما بعد أن ألبسه التحريف بالباطل: ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يقصّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** ﴾ (سورة النحل ٧٦).

إن وحدة المصدر لهذه الكتب السماوية هي التي تجمع بينها على طريق سواء في مبادئ الدين وأصوله العامة، وتجعل اختلافها في ذلك محالاً . وعلى هذا الاعتبار فإن تنزيه الله عن كل نقيضه، والأنبياء عن كل معصية أصل لا يتغير في جميع الأديان، وكلما وجدنا في نصوص العهد القديم ما يعارض مبدأ تنزيه الله، أو عصمة الأنبياء، أيقنا بتحريفه.

ونأتي هنا بواحدة من القصص التاريخية في القرآن ونتتبع سير الأحداث فيها لنخرج في النهاية إلى أن العرض التاريخي في مثل هذه القصة حجة لا تقبل الطعن . تلك هي قصة " ذي القرنين " التي وردت في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا** ﴾ (الكهف: ٨٣-٩٨) .

في هذه القصة لم يذكر القرآن شيئاً عن شخصية ذي القرنين ... ونحن كذلك لن ندخل في مناقشة حول من هو ذو القرنين شخصيته إلى آخر هذا .. فليس المقصود في القرآن الكريم من تحديد أعلام القصص، أن يحدد شخص بنفسه لأن التشخيص قد يفسد القضية . فإذا حاولنا أن نحدد من هم أصحاب الكهف مثلاً .. ومن هو فرعون موسى، ومن هو قارون، إلى آخر الشخصيات التي ذكرت في القرآن . فإننا نتوه عن الحقيقة التي أراد الله سبحانه وتعالى أن نعرفها . ذلك أن هذه الشخصيات تتكرر في كل زمان ومكان، وهى قصص مضروبة لكل عصر، والعبرة هنا تأتى بالشيوع، أي تأتى على من تنطبق عليهم القصة، في أى زمان كانوا وفي أى مكان وجدوا [٥٢]، وهذه هي السمة المطردة في قصص القرآن، فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود، إنما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة [٥٣]....فعندما يضرب الله مثلاً بالذين كفروا: " امرأة نوح وامرأة لوط "، فهو لا يعنى بذلك هاتين المرأتين بالذات فقط، وإنما كل امرأة يكون زوجها صالحاً وتخونه، وعندما يضرب المثل بامرأة فرعون، فإنما يعنى كل امرأة مؤمنة وزوجها كافر، وهذا يتكرر في كل عصر، والحادثة الوحيدة التي لن تتكرر هي قصة مريم، ولذلك قال سبحانه وتعالى: " ومريم ابنة عمران " أي أنه نسبها لأبيها لأنها لا تتكرر . إذاً فالتشخيص في القرآن الكريم، ليس معناه انتهاء الحدث بالشخص، ومن هنا فإننا حينما نتحدث عن ذي القرنين، نتحدث عن رجل مكّن الله له من كل شيء، وآتاه من كل شيء سبباً ؛ ولا نتحدث عن الخلاف حول شخصية ذي القرنين، ومَن هو، إلى آخر ما يُراد به البعد عن الحكمة، على فرعيات ليست مطلوبة [٥٤] .

ومن البدهي أنه لا تجوز محاكمة القرآن الكريم إلى التاريخ لسببين واضحين:

أولهما: إن التاريخ مولود حديث العهد، فاتته أحداث لا تحصى في تاريخ البشرية، ولم يعلم عنها شيئاً .والقرآن يروى بعض هذه الأحداث التي ليس لها لدى التاريخ علم عنها .

وثانيهما: إن التاريخ، وإن وعى بعض هذه الأحداث – هو عمل من أعمال البشر

القاصرة يصيبه ما يصيب جميع أعمال البشر من القصور والخطأ والتحريف . ونحن نشهد في زماننا هذا – الذي تيسرت فيه أسباب الاتصال ووسائل الفحص – أن الخبر الواحد أو الحادث الواحد يُروى على أوجه شتى، وينظر إليه من زوايا مختلفة . ويفسرّ تفسيرات متناقضة.ومن مثل هذا الركام يصنع التاريخ، مهما قيل بعد ذلك في التمحيص والتدقيق. فمجرد الكلام عن استفتاء التاريخ فيما جاء به القرآن الكريم من القصص، كلام تنكره القواعد العلمية المقررة التي ارتضاها البشر، قبل أن تنكره العقيدة التي تقرر أن القرآن هو القول الفصل ... وهو كلام لا يقول به مؤمن بالقرآن، ولا مؤمن بوسائل البحث العلمي على السواء . إنما هو مراء !!! [٥٥] .

لقد سأل سائلون عن ذي القرنين، سألوا الرسول – صلى الله عليه وسلم – فأوحى إليه الله بما هو وارد هنا من سيرته .. وليس أمامنا مصدر آخر غير القرآن في هذه السيرة، فنحن لا نملك التوسع فيها بغير علم، وقد وردت في التفاسير أقوال كثيرة ولكنها لا تعتمد على يقين، وينبغي أن تؤخذ بحذر، لما فيها من إسرائيليات وأساطير . وقد سجل السياق القرآني لذي القرنين ثلاث رحلات: واحدة إلى المغرب، وواحدة إلى المشرق، وواحدة إلى مكان بين السدّين .

ونقف هنا أمام ظاهرتين جديرتين بالملاحظة والاهتمام في هذه الرحلات الثلاث أولهما: إن الله سبحانه وتعالى جعل لذي القرنين عملاً حين بلغ مغرب الشمس ... وجعل له عملاً حين بلغ بين السدّين ... ولكن في الرحلة الثالثة لم يجعل له عملاً .. إذاً لاشك أن المراد هنا هو ما ذكره الله سبحانه وتعالى: " لم نجعل لهم من دونها ستراً " . إن ذي القرنين قد وصل إلى مناطق في الأرض لا تغيب عنها الشمس فترة طويلة ... أى أنه لا يتعاقب عليها الليل والنهار كباقي أجزاء الكرة الأرضية .. بل تظل الشمس مشرقة عليها لفترة طويلة لا يسترها ظلام . فكأن الله تعالى يريد أن يخبرنا أن هناك أماكن في الأرض لا تخضع لقواعد تعاقب الليل والنهار كالتي تخضع لها باقي أجزاء الأرض، وإنما تشرق الشمس عليها دون أن يسترها الظلام لفترة طويلة[٥٦].

أما الظاهرة الثانية، " فهي ظاهرة التناسق الفني في العرض .. فإن المشهد الذي يعرضه السياق هو مشهد مكشوف في الطبيعة: الشمس ساطعة لا يسترها عن القوم ساتر . وكذلك ضمير ذي القرنين ونيّاته كلها مكشوفة لعلم الله .. وكذلك يتناسق المشهد في الطبيعة وفي ضمير ذي القرنين على طريقة التنسيق القرآنية الدقيقة "[٥٧] .

وهكذا تنتهي قصة ذي القرنين الأنموذج الطيب للحاكم الصالح ، يمكنّه الله في الأرض، وييسرّ له الأسباب، فيجتاح الأرض شرقاً وغرباً، ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنى المادي، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق، ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه. إنما ينشر العدل في كل مكان يحلّ به، ويساعد المتخلفين ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل، ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التعمير والإصلاح، ودفع العدوان وإحقاق الحق . ثم يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله، ولا ينسى وهو في إبان سطوته أن يعلن ما يؤمن به من أن الجبال والحواجز والسدود ستدك قبل يوم القيامة، فتعود الأرض سطحًا أجردًا مستويًا [٥٨]: " قال هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقاً ".

وهكذا فإن القصص التاريخي في القرآن وإن لم يكن عرضاً تاريخياً بالمعنى المعروف، لكنه حجة لا تقبل الطعن في إثبات ما قصّ من وقائع تاريخية وقد أبان وجه الحق فيما دخل علي بعض القصص من زيف أو تحريف، سواء في كتب العهدين، القديم والجديد، أو في كتب التاريخ القديمة.

وفي القرآن إشارات لا تخلو من أصول علم التاريخ وبذور فلسفته، فعلى الدارس لقصصه ألا يقتصر على معرفة الوقائع، بل عليه أن يعرف أسبابها ونتائجها وسننها، ليتعمق في فهم الحكمة التي يسير بها هذا الوجود وفق نواميس هي من صنع الله، وهى علي أكمل نظام، وأتقن ترتيب.

إن القرآن لم يقتصر علي عرض لوحات مجردة لماضي الإنسانية في صراع قوي الخير وقوي الشر، وإنما كان يهدف إلى بعث المثال من التاريخ، لإثارة الانفعالات الموحية بالهداية والإيمان، واستغلال الأحداث التاريخية في التربية ومعالجة النزعات النفسية في الإنسان، وأمراض المجتمع الذي يعيش فيه بما لتلك الأحداث من قوة مفروضة علي النفس تحدث فيها انصهاراً ووعياً ويقظة وإحساسًا.

ومن هنا كان هذا القصص التاريخي أشد تأثيراً وأسمي طموحاً من التاريخ، لأنه يمدّ الإنسان بسلاح الإيمان والثبات، ويعرفه بما لله من نواميس قارة في نظام الخلق والإبداع، ومن سنن مطردة في نظام الأقوام والأمم، سنن خاضعة لإرادة الله وليست مقيدة لها، تتصل فيها الأسباب بالمسببات، فلا تتغير أو تتحول محاباة من الناس، لأنها محور عدل الله وحكمته في تدبير الأمور " [٥٩].

٢ـ القصة الواقعية:

وهي التي تعرض أنموذجاً لحالة بشرية، فيستوي أن تكون بأشخاصها الواقعيين أو بأي شخص يتمثل فيه ذلك الأنموذج [٦٠] . ومن أمثلة ذلك: قصة ابني آدم والتي وردت في قوله تعالى: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِن بَسَطتَ إِلَى يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ** ﴾ (سورة المائدة: ٢٧-٣١).

هذه القصة تقدم أنموذجاً لطبيعة الشر والعدوان، وأنموذجاً كذلك من العدوان الصارخ الذي لا مبرر له. كما تقدم أنموذجاً لطبيعة الخير والسماحة وأنموذجاً كذلك من الطيبة والوداعة. وتقفهما وجهاً لوجه، كل منهما يتصرّف وفق طبيعته [٦١]،

حيث اتبع القرآن في هذه القصة أسلوب تصوير الشخصية، وهو من الأساليب القرآنية الرائعة التي سار عليها وذلك بأن تقف الشخصيتان في حادثة معينة، موقفين متباينين.. ثم ينطلق الحوار الناطق، كلمة بكلمة، والحوار الصامت،عملاً بعمل، ليعبّر عن المعاني التي تجيش في نفس كل منهما إزاء موقفه .. ليفتح – من خلال ذلك – للإنسان الطريق الصحيح لممارسة الحياة في الإطار السليم [٦٢] .

أما عن السياق فتبدو القصة وإيحاءاتها ملتحمة التحاماً قوياً مع الأحكام التالية لها في السياق القرآني، ويحس القارئ المتأمل للسياق بوظيفة هذه القصة في موضعها، وبعمق الإيحاء الإقناعي الذي تسكبه في النفس وترسيه، والاستعداد الذي تنشئه في القلب والعقل لتلقي الأحكام المشددة التي يواجه بها الإسلام جرائم الاعتداء علي النفس والحياة ..

ولا يحدد السياق القرآني لا زمان ولا مكان ولا أسماء القصة . وعلي الرغم من ورود بعض الآثار والروايات عن " قابيل وهابيل " وإنهما هما ابنا آدم في هذه القصة، وورود تفصيلات عن القضية بينهما، والنزاع علي أختين لهما . فأننا نؤثر أن نستبقي القصة، كما وردت – مجملة بدون تحديد – لأن هذه الروايات كلها موضع شك في إنها مأخوذة عن قصة التوراة الواردة في سفر التكوين [٦٣] وبقاء القصة مجملة – كما وردت في سياقها القرآني – يؤدي الغرض من عرضها، ويؤدي الإيحاءات كاملة، ولا تضيف التفصيلات شيئاً إلى هذه الأهداف الأساسية..

ولا يكتفي السياق بالانتهاء من عرض القصة، بل يلتقط الآثار العميقة التي تتركها في النفس رواية النبأ بهذا التسلسل، ليجعل منها ركيزة شعورية للتشريع الذي فُرض لتلافي الجريمة في نفس المجرم، أو للقِصاص العادل إن هو أقدم عليها بعد أن يعلم آلام القِصاص التي تنتظره: ﴿ **مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ** ﴾ (سورة المائدة:٣٢) .

مـن أجـل ذلـك .. من أجل وجود هذه النماذج في البشرية .. من أجل الاعتداء عـلي المسالمين الوادعـين الخيرين الطيبين، الذين لا يريدون شراً ولا عدواناً .. ومن أجـل أن المـوعظة والتحذيـر لا يجـديان في بعض الجبلات المطبوعة علي الشر، وأن المسألة والموادعة لا تكفيان الاعتداء حين يكون الشر عميق الجذور في النفس .. من أجـل ذلـك جعلـنا جريمة قتل النفس الواحدة كبيرة من الكبائر، تعدل جريمة قتل الـناس جميعاً، وجعلنا العمل علي دفع القتل واستحياء نفس واحدة عملاً عظيماً يعد إنقـاذ الـناس جمـيعاً.. ولقد كتب الله ذلك المبدأ علي بني إسرائيل، لأنهم كانوا – في ذلـك الحـين – هـم أهـل الكـتاب،الذين يمـثلون " دار الإسلام " ما أقاموا بينهم شريعة التوراة بلا تحريف ولا التواء.. ولكن بني إسرائيل تجاوزا حدود شريعتهم – بعـد مـا جاءتهم الرسل بالبيّنات الواضحة- وكانوا علي عهد رسول الله – صلي الله عليه وسلم- وما يزالون يكثر فيهم المسرفون المتجاوزون لحدود شريعتهم. والقرآن يـسجل علـيهم هـذا الإسراف والـتجاوز والاعـتداء، بغـير عـذر، ويسجل عليهم كـذلك انقطـاع حجـتهم عـلي الله وسقوطها بمجيء الرسل إليهم، وبيان شريعتهم لهم[١٤] كما في قوله تعالي:

﴿ وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ (سورة المائدة من الآية ٣٢) وهل من إسراف أشدّ من تجاوز حدود الله ؟ والتعدّي علي شريعته، بالتغيير أو بإلاهمال؟

إن هـذه القصة الواقعية القصيرة أو " القصة الذريّة "[١٥]- قصة في خمس آيات – لأنهـا تـشبه الـذرة في ضـآلتها ومساحة تأثيرها الكبير، والتي قصّها علينا القرآن في إطـار الحـوار القـصير، تجسّد لنا الصورة الحيّة لشخصيّة الإنسان الشرير إلى جانب شخـصية الإنـسان الخـيّر، لتربطـنا بفكـرة الخير وتبعدنا عن فكرة الشر، في موقف يوحـي للناظـر والمـستمع، بفظاعـة موقـف ذاك إزاء روعة موقف هذا، حيث نري الجـريمة خالـية من كل مبرراتها وحيثياتها العادلة التي تجعل منها عملاً عادلاً، لأنها نـشأت مـن حالة نفسية معقدة بالحسد، فليس للضحية فيها أي ذنب، بل نجد – في

جـو الآية – أن الضحية لم تحاول أن تجعل من قبول قربانها ورفض قربان المجرم لها، آساسـاً لأي تـصرف اسـتعراضي يُسئ إلى كرامته علي الشكل الذي يتبعه الرابحون أمام الخاسرين لأن خلق الأخ المؤمن كان بعيداً عن ذلك كل البعد.

ولعل قيمة هذه القصة، أو بالأحرى، عرض القرآن لهذه القصة، تتمثل فيما تخلقه في نفـس القارئ أو السامع، من تأثير نفسي ضد الجريمة والمجرم، وتعاطف روحي مـع الـضحية، ممـا يترك آثاره علي السلوك الإنساني العام فيما يريد أن يقدم عليه من عمل، أو يحكم عليه من أعمال الآخرين.

ويمكـن الاسـتفادة مـن مـثل هذه القصة تربوياً إذ تعتبر هذه القصة وسيلة حية للإيـضاح عـندما تـتحول إلى عمل مسرحي أو ما يشبه ذلك، وأسلوباً من أساليب التوجـيه والتربية فقد نجد من الخير لنا، أن نجعلها إحدى القصص الدينية التربوية التـي نقـدمها للأطفال أو للشباب، بالأسلوب الذي يتناسب مع ذهنيّاتهم في عملية تـصويرية حية، بالكلمة أو بالصورة، أو بالتمثيل كما أنه يمكن استيحاء هذه القصة في وضع قصص متنوعة قريبة إلى مثل هذه الأجواء، لتعالج قضية الجريمة والمجرم، في أي جانـب مـن جوانبها، سواء منها الذي يتمثل بالقتل، أو بالسرقة، أو بالزنا أو بـالظلم والاعـتداء عـلي الـناس بـشكل عـام.. لأن دور الأسلوب القرآني هو دور تخطـيط المـنهج الـتربوي ليـسير علـيه الآخـرون في حركة اتباع أو استيحاء وإبداع وليس دور إعطاء النصوص، لحفظها واستظهارها، ونقلها بطريقة "ببغائية" جامدة لا تملك أن تتصرف أو تتحرك في اتجاه التنويع[٦٦].

٣ـ القصة التمثيلية:

وهـي نـوع مـن أنواع المثل في القرآن الكريم يطلق عليه المثل القياسي، وهو سرد قصـصي أو وصـفي، يتعاطـى أحد أمرين، فهو: إما أن يصور أنموذجاً من السلوك الإنـساني بقصد التأديب أو التمثيل والتوضيح، وإما أن يجسّم مبدأ يتعلّق بملكوت الله ومخلوقاته[٦٧].

وكما يتضح الصدق الواقعي في القصص التاريخي، وهو أكثر قصص القرآن، فإن

الصدق في القصص التمثيلي يلاحظ من وجهتين: موضوعية وفنية:

أما الوجهة الموضوعية فهي تمثيله بأشخاص غير معينين لم يكن لهم وجود بأسمائهم في واقع التاريخ، ولكن وجود أمثالهم في واقع الحياة ممكن، وذلك من حيث مواقفهم وتصرفاتهم التي تمليها نوازع نفسية راسبة في شعور الإنسان لأنها من طباعه وفي غرائزه..

وأما الوجهة الفنية، ففي تصويره للشخصية من خلال الحوار تصويراً حياً، وفي دقة نقله لمشاعرها وتعبيره عن مواجيدها وأحاسيسها، وهذه وظيفة الفن[٦٨].

ومن أبدع القصص التمثيلي في القرآن قصة صاحب الجنتين لما فيها من تشخيص حي للمشاهد يقصّر عنه التعبير في أي أسلوب آخر غير الأسلوب القصصي، والقصة تضرب مثلاً للقيم الزائلة والقيم الباقية، وترسم أنموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة، والنفس المعتزة بالله. وكلاهما أنموذج إنساني لطائفة من الناس: صاحب الجنتين أنموذج للرجل الثري، تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى القوة الكبرى التي تسيطر علي أقدار الناس والحياة . ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفني، فلن تخذله القوة ولا الجاه. وصاحبه أنموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربه يري النعمة دليلاً علي المنعم، موحية لحمده وذكره، لا لجحوده وكفره[٦٩]:

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَى

رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ (سورة الكهف ٣٢- ٤٤).

تبدأ القصة بمشهد الجنتين في ازدهار وفخامة، ويختار التعبير كلمة " تظلم "(كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً) في معني تنقص وتمنع، لتقابل بين الجنتين وصاحبهما الذي ظلم نفسه فبطر ولم يشكر، وازدهى وتكبر[٣٠]... ونلاحظ أن صاحب الجنتين قد بدأ الحوار مع صاحبه من موقع الإحساس بالقوة، بسبب ما يملك من كثرة المال والأتباع، وكان خطابه – معه – ينطلق من محاولته لإخضاعه نفسياً بمواجهته بواقع الفارق الكبير بينهما، وتميزه عنه، أما صاحبه المؤمن الفقير فيقف في حواره مع صاحب الجنتين، في موقع الإنسان الرسالي الذي يستنكر علي هذا الغني المزهو بغناه، كفره باليوم الآخر ونسيانه لله... ويبدأ في تذكيره بنعم الله عليه وحاجته إليه في كل شيء.. ليبقي مشدوداً إليه في حال الإحساس بالقوة، كما يشعر بالارتباط به في حال الإحساس بالضعف، لأن القوة هبة، يهبها لمن يشاء ويسلبها ممن يشاء .. وبهذا يتجسّد لنا الفارق الكبير بين العقليتين والاتجاهين في فهم الحياة من خلال هذا الحوار الذي أداره القرآن الكريم بين الرجلين لنستوحي منه الفكرة التي تحكم الموقف في حساب القيم والمعاني الكبيرة في الإسلام[٣١].

وتكتمل الصورة، بالمشهد الأخير في القصة، حيث ينقلنا السياق فجأة من مشهد النماء والازدهار إلى مشهد الدمار والبوار . ومن هيئة البطر، والاستكبار إلى هيئة الندم والاستغفار. فلقد كان ما توقعه الرجل المؤمن: " وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا " .. وهو مشهد شاخص كامل: الثمر كله مدمر كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شيء. والجنة خاوية علي عروشها مهشمة محطمة. وصاحبها يقلّب كفّيه أسفاً

وحزناً علي ماله الضائع وجهده الذاهب.. وهنا يتجسد لنا الدرس الرائع حيث نجد الإنسان المتجبر المزهو بذاته وبثرائه، عارياً من كل شيء أمام الحقيقة الكبيرة التي تملأ الكون.. فلا نري هنا إلا الله الذي يمنح ويأخذ، ويعطي ويمنع.. فله الولاية الحق علي كل شيء: ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾.

ويُسدل الستار على مشهد الجنة الخاوية على عروشها، وموقف صاحبها يقلب كفّيه أسفاً وندماً، وجلال الله يظلّل الموقف، حيث تتوارى قدرة الإنسان [٧٢].

٤ـ القصة العاطفية:

تكلّم القرآن الكريم عن الحبّ، والهوى، وتخلّل الحبّ بعض قصصه لأهداف وعظية أوعز بها القرآن الكريم كي تستثمر فكرياً كمنطلق لدراسة السلوك الإنساني والعواطف البشرية، وذلك خلال هدفها الديني المباشر.

مفهوم الحبّ في القرآن الكريم:

ظلّت كلمة الحبّ من أكثر الألفاظ تردداً في القرآن الكريم، من أي كلمة أخري تعبر عن معناها أو جانب من هذا المعني، فلم ترد كلمة " العشق " في القرآن مطلقاً ... وقد وصف " العشق " بأنه تعبير عن الاشتهاء في حين أن " الحبّ " ميل قلبي ليس الاشتهاء دافعه أو غايته، والأمر اللافت حقاً أن " الحبّ " في القرآن الكريم جاء لمجرد الميل والتعلق، فوصف به الذين آمنوا: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ (البقرة من آية ١٦٥) ووُصف به المؤمنون بأن الله تعالى:﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (المائدة من آية ٥٤) ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (آل عمران من آية ٣١). ووصف به الانحراف في العبادة: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ (البقرة من آية ١٦٥) كما وصف به الميل والتعلق بصفة عامة بين أفراد الأسرة، بل بين الإنسان وما يستهويه من متاع الدنيا ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ

اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾(التوبة: آية ٢٤)، وأيضاً: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ ﴾ (آل عمران من آية ١٤).

وقد جاء الفعل " لا يحب " لنفي الميل في نفس هذه الدائرة من الاستعمال العام: ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ (الأنعام من آية ٧٦) ﴿ هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾ (آل عمران من آية ١١٩).

وقد جعل ابن قيم الجوزية، الحبّ أول خطايا البشرية، وسبب معاناتها بالخروج من الجنة، وإن دل اللفظ علي أنه مردود لقول آخرين لم يعنهم: " قالوا: وقد حبَّبَ الله سبحانه وتعالى إلى رسله وأنبيائه نساءهم وسراريهم، فكان آدم أبو البشر شديد المحبة لحواء، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه خلق زوجته منه ليسكن إليها. قالوا: وحبه هو الذي حمله علي موافقتها في الأكل من الشجرة . قالوا: وأول حب كان في هذا العالم حب آدم لحواء، وصار ذلك سنة في ولده في المحبة بين الزوجين "[٧٣] .

علي أن الخطاب في الآيات القرآنية موجه غالباً إلى آدم وحواء معاً، والوصف بالعصيان خصّ به آدم وحده، ولم يقل لنا " ابن القيم " إذا كانت سنة الحبّ " بين الزوجين " قد بدأت بآدم وحواء، متي بدأت " سنة " الحبّ بين من ليسا بزوجين "[٧٤] !!.

والحبّ كتعبير عن علاقة الرجل بالمرأة لم يرد في القرآن الكريم إلا في سياق قصة يوسف وامرأة العزيز حيث (قد شغفها حباً)، وحينئذ فان تقديم " الشغف " – وهو من شغاف القلب أي الباطن والصميم – قد خلع علي هذا الاستعمال نوعاً من التخصيص أعان عليه السياق . والآن مع متابعة قصة يوسف وامرأة العزيز خطوة خطوة لنرى كيف تتجسد من خلالها الصورة الحية المعبرة التي أراد القرآن منا أن نتمثلها في حياة الأنبياء السابقين:

يوسف وامرأة العزيز:

" وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَى مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ "(سورة يوسف آية ٢٣ إلى ٣٤).

تلك الصورة كاملة في قصته مع امرأة العزيز .. الجو مشبّع بالإغراء .. وبالعوامل التي تقود إلى الانحراف .. فيوسف شاب في المرحلة المتفجرة من شباب الغريزة وحيويّتها وامرأة العزيز أنثي يحرق مشاعرها وأحاسيسها جمال يوسف الرائع وشبابه المتفجر .. والأجواء التي يعيشها الاثنان تهيّئ للألفة والاستلطاف للحب.. وتبدأ لتمهد للانحراف في ظل الخلوات... والمشاعر تلتهب، والغريزة تلهث، في كيان هذه المرأة .. أما يوسف فلم يشغل ذهنه في هذا كله – للإيمان الذي

يغمر قلبه، والوفاء الذي يشعر به تجاه صاحب البيت[٧٥].

وقد كنّي القرآن الكريم عن المرأة التي دعت يوسف إلى نفسها بقوله تعالى:" التي هو في بيتها " ستراً علي هذه المرأة، حتى لا تفضح بين أهلها وقومها عن الملأ.. كما أن في إضافة يوسف إليها، وبأنه في بيتها، إشارة إلى أنها ذات سلطان علي يوسف، الذي هو نزيل بيتها، وربيب نعمتها، وأن لها أن تأمر، وعليه أن يطيع .. فإن لم يكن ذلك بسلطان جمالها، كان بسلطان جاهها .. فكيف وبيديها سلطان الجمال وسلطان الجاه؟[٧٦].

ولذا فإن القصة لم تشر إلى أية مبادرة منه، بل كانت المبادرة من امرأة العزيز.. وراودته عن نفسه .. وغلقت الأبواب .. وقالت هيت لك.. هذه الدعوة السافرة الجاهرة الغليظة لا تكون أول دعوة من المرأة .. إنما تكون هي الدعوة الأخيرة. وقد لا تكون أبداً إذا لم تضطر إليها المرأة اضطراراً . والفتي يعيش معها وقوته وفتوّته تتكامل، وأنوثتها هي كذلك تكمل وتنضج، فلابد وأن كانت هناك إغراءات شتي خفيفة لطيفة، قبل هذه المفاجأة الغليظة العنيفة[٧٧].

فإن كان من امرأة العزيز هذا الاسترخاص لجمالها وسلطانها أمام سلطان حبها ليوسف – فإن هذا إنما يدل علي مدي تمكن الحبّ من قلبها حتى وقف بها هذا الموقف المهين لدلال المرأة، وعفاف الحرّة، وامتهان سلطان الجاه والجمال ![٧٨].

بعد هذا العرض المشبّع بالإثارة جاء رد يوسف يحمل كلمة الإيمان:

" معاذ الله " .. وكلمة الوفاء: " إنه ربي أحسن مثواي ".. ومضي يلخّص لها الموقف في كلمة حاسمة:" إنه لا يفلح الظالمون ".. فهي تظلم نفسها بالمعصية وتظلم زوجها بالخيانة، في هذا الموقف، أما هو، فيلاحقه الشعور بأنه سيتحول، إلى ظالم لنفسه، ولرب البيت الذي آواه ورعاه، فيما لو تجاوب معها في خطّ الانحراف والخيانة .. ولم تستجب للكلمة الحاسمة، فاعتبرتها دلالاً، أو خوفاً من النتائج .. وضاعفت الإغراء .. وهمّت به لتثيره وتنحرف به عن موقفه الصامد: " وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ " .. هو موقف طويل من الإغراء، بعدما أبى

يوسف في أول الأمر واستعصم .. وهو تصوير واقعي صادق لحياة النفس البشرية الصالحة في المقاومة والضعف، ثم الاعتصام بالله في النهاية والنجاة .. ولكن السياق القرآني لم يفصل في تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبة، لأن المنهج القرآني لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضاً يستغرق أكثر من مساحته المناسبة في محيط القصة، وفي محيط الحياة البشرية المتكاملة كذلك . فذكر طرفي الموقف بين الاعتصام في أوله والاعتصام في نهايته، مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعاً[٧٩] .

ولم يكن أمام يوسف إلا الهرب بدينه وإيمانه وخُلُقه .. وانطلقت وراءه في حركة مسعورة، لترجعه بكل قوة .. حتى تمزّق قميصه من ذلك .. وكانت المفاجأة لهما بالمرصاد .. فألفيا سيدها لدي الباب .. وحاولت أن تبرئ نفسها لتكون في موقف الضحية . أمام المعتدي .. ولكن براءة يوسف كانت ظاهرة في نبرات صوته، وصفاء روحه، وفي شهادة حاله التي تأكدت بالحكم الذي وضع القضية في إطار مصلحته[٨٠]. واقتنع الزوج ببراءة يوسف، وأقبل علي امرأته، لا ليدينها وحدها في شخصها، بل ليجعل التهمة مشاعة في بنات جنسها جميعاً .. " قال إنه من كيدكن " أيتها النساء " إن كيدكن عظيم " .. إنه يتهمها بأنها المدبرة لهذا المنكر، والداعية إليه، ولكنه يغلف هذا الاتهام بتلك الكياسة السياسية التي هي صنعة الملوك، ومَن في صحبة الملوك .. ثم ينهي هذا الموقف بالجمع بين المرأة وفتاها، في مقام النصح واللوم والتأنيب .. فيقول ليوسف:" يوسف أعرض عن هذا " ثم يلتفت العزيز إلى امرأته قائلاً:" وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ " .. وفي التعبير بلفظ الخاطئين، بدلاً من الخاطئات، ليخفف عنها وقع التهمة، فلا يجعل الخطيئة مقصورة علي بنات جنسها وحدهن، بل يشاركهن الرجال فيها، ولو أنه كان يريد أن يلقي امرأته بالاتهام الصريح، لقال لها: إنك كنت خاطئة ... ولكنه، كان يخاطبها بما يقضي به أدب الملوك، ومن اصطناع الكياسة، واللياقة واللطف"[٨١] .

ويُسدل الستار علي المشهد وما فيه .. وقد صور السياق تلك اللحظة بكل

ملابساتها وانفعالاتها: " ولكن دون أن ينشيء منها معرضاً للنزوة الحيوانية الجاهرة، ولا مستنقعاً للوحل الجنسي المقبوح" [٨٢].

ولم يحلّ السيد بين المرأة وفتاها .. ومضت الأمور في طريقها .. ولكن للقصور جدراناً، وفيها خدم وحشم . وما يجري في القصور لا يمكن أن يظل مستوراً، وبخاصة في الوسط الأرستقراطي، الذي ليس لنسائه من همّ إلا الحديث عما يجري في محيطهن.. وإلا تداول هذه الفضائح ولوّكها علي الألسن في المجالس والسهرات والزيارات: " وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ " لأول مرة نعرف أن المرأة هي امرأة العزيز، وأن الرجل الذي اشتراه من مصر عزيز مصر – أي كبير وزرائها – ليعلن هذا مع إعلان الفضيحة العامة بانتشار الخبر في المدينة . ونتساءل هنا: وما داعية الكشف عن وجه المرأة وعن مكانتها في المجتمع؟ وقد كان يمكن أن تمضي أحداث القصة دون حاجة إلى معرفة هذه المرأة بالذات، وحسبها أن تكون امرأة وقعت في حب ربيبها ؟ ونقول – والله أعلم – إن القرآن الكريم لم يكشف عن وجه المرأة من قبل، لأن الأحداث كانت تجري علي المستوي المألوف في حياة عامة الناس وخاصتهم علي السواء .. فأي بيت كان يمكن أن يضم إليه يوسف وأي امرأة كان من الممكن – أن تراوده عن نفسه، سواء أكانت امرأة ملك أو سوقة .. إنها امرأة أيًا كان وضعها الاجتماعي إذ لم يكن ليوسف خيار في اختيار السيد الذي يملكه، والمرأة التي تكون في بيت هذا السيد... أما حين يكون للحدث ذكر، وشأن يراد به الكشف عن وقعه، في المجتمع وأثره في الناس، فإن الأمر يختلف بالنسبة لمن يتعلق به الحدث من حيث وضعه الاجتماعي ومكانته في المجتمع، فالحدث يكبر أو يصغر، وتتسع دائرته أو تضيق، تبعاً لما تعلق به الحدث .ومن البدهي أن تتعلق عيون الناس وآذانهم بأصحاب السلطان والسيادة فيهم، يتسمعون إلى أخبارهم، ويشغلون بالحديث عنهم ... وعلي الرغم من أن حادثة امرأة العزيز كانت في دائرة ضيقة، لا تتعدي المرأة، ويوسف، والعزيز زوجها، فإنه سرعان ما نفذت العيون من خدم القصر إلى هذا السر، ووقعت الأذان عليه، فكان همساً علي الشفاه، ثم حديثاً دائراً

علي الألسنة، أقرب إلى الإشاعة منه إلى الحقيقة – ومن هنا كان لابد من كشف وجه هـذه المـرأة التـي اهـتم الناس بأخبارها، وشغلوا بالحديث عنها .. إنها امرأة العزيز وأن بيـتها ليضم سراً خطيراً .. إنها تراود فتاها عن نفسه، وهو يتأبى عليها، وهو في الوقت نفسه مِلك يديها[٨٣]

الأسلوب التربوي في القصة:

١- إن قـيمة هـذا الحـوار كلـه يظهـر في تجـسيد صـورة المؤمن عندما يتعرض للاحـتراق في جحيم تجربة الانحراف عن الخط المستقيم، أمام نداء الجنس .. فيقف مع إيمانه مهما كانت التضحيات والآلام.

٢- يتضح لنا من خلال المواقف المختلفة في مشاهد القصة أنه كان هناك حواراً صـامتاً مـن جهـة .. وحواراً طويلاً متنوعاً تدل عليه التجارب الفاشلة المريرة التي حاولـتها هـذه المـرأة – بما في ذلك المؤتمر النسائي الذي عقدته في بيتها .. وإن كانت كلمات الحوار بين يوسف وامرأة العزيز قصيرة جداً إلا أنها تقدم لنا الأنموذج الحي للموقف الإيماني الصلب أمام محاولات الإغراء، للإيحاء بأن قضية الدعوة إلى العفة في المجالات الجنسية، ليست من القضايا المثالية التي تبتعد عن واقع التطبيق العملي للحـياة الإنـسانية، بـل هـي مـن قـضايا الواقـع التي تتمثل بأكثر من تجربة في أشد المواقف حراجة وصعوبة [٨٤] .

٣- هـذا وقـد ينظـر بعـض ذوي الأبصار الكليلة إلى هذه القصة، وما فيها من المواقف العاطفية بين الرجل والمرأة، فيخيل لهم من ذلك القرآن الكريم إنما اصطنع هـذا الموقف اصطناعاً ليرتضي به بعض الغرائز، استهواء للنفوس، وشداً لانتباهها، كـما يحدث ذلك في أغلب ما يعرض القصاصون من قصص .. وهذا لاشك ضلال في الـرأي، وفساد في الإدارك .. فالقصص القرآني متنزّل من عالم الحق، لا يلتبس به باطـل [٨٥]، وإنـما هو كما وصفه الحق سبحانه وتعالى في قوله:" وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ " (سورة الإسراء: من الآية ١٠٥)

ولعل هذه الرؤية تجعلنا نثير التفكير حول نقطتين مهمتين نستوحيهما من عرض القصة:

أ- النقطة الأولي: إن الدين لا يتنكر للحديث عن الجوانب العاطفية في حياة الإنسان بما في ذلك قصص الغرام والحبّ التي يعيشها الناس، إذا كانت تخدم الأهداف الرسالية، باعتبارها تمثل موقفاً من مواقف الانتصار علي النفس في نوازعها الغريزية وشهواتها الجنسية .. لتعطينا الأنموذج الواقعي للإنسان الذي ينسجم مع رسالة الله . كدليل حي علي واقعية الإسلام في شريعته، ومفاهيمه .. وربما تصوّر بعض المواقف المأساوية للرجل والمرأة بسبب انحراف خاص، أو سلوك غير مسئول .. فتنطلق القصة لتكون أسلوب ردع وتحذير عن مثل هذه المواقف في المستقبل .. ولهذا فإن من الممكن أن نستفيد من ذلك في التخطيط للأدب الإسلامي الملتزم، بالأخذ بالاتجاه القصصي الذي يعطي للمضمون العاطفي في قصص الحبّ والغرام دوره الكبير فيما يؤلف من قصص إلى جانب المضمون الاجتماعي، والسياسي وغيرهما..

ب- النقطة الثانية: إن الدين يتحدث عن العلاقات الجنسية – الشرعية أو المنحرفة – حديثاً طبيعياً كما يتحدث عن أية قضية أخري من علاقات الإنسان – مما يوحي بأنه لا يعتبر مثل هذه العلاقات، في مجالات المعرفة، شيئاً معيباً كما توحي به التقاليد الاجتماعية، بل ربما نفهم من كثير من الآيات والأحاديث التي تسمي الأشياء بأسمائها .. كما تسمي سائر أعضاء الجسم العادية، إن الإسلام لا يمانع في الثقافة الجنسية حينما تخطط تخطيطاً سليماً بعيداً عن أجواء الإثارة تماماً كأي ثقافة أخري[٨٦] ..

وخلاصة القول إن قصة يوسف وامرأة العزيز عندما عرضت الفتنة التي وقع فيها يوسف فإنها عرضت لحظة الضعف كما هي بلا " رتوش "، إنها فتنة . إنها ضعف . إنها خضوع لدافع من دوافع النفس الفطرية . ولكنها – علي واقعيتها – لا تستحق الاحتفال، إلا من جانب واحد .. هو أن الإنسان يفئ منها إلى نفسه، ويعرف أنها كانت لحظة ضعف فيرتفع عنها، وينيب إلى الله[٨٧].

٥ـ القصة الرمزية:

قبل أن نقدم أنموذجاً للقصة الرمزية في القرآن الكريم يجب أن نحدد نقطتين مهمتين لفهم " الرمزية " في قصص القرآن الكريم:

أولاهما: إن الرمزية في قصص القرآن الكريم قد جاءت لتأكيد قيمة المعاني الثانية في هذه القصص، وهو ما يسمي بإيحاءات الألفاظ ووقعها النفسي في الصورة الأدبية، وهذا ينقلنا إلى أقدم تعريفاً للرمز علي المستوي اللغوي قدمه " أرسطو " فهو يري:" إن الكلمات رموز لمعاني الأشياء، أي رموز لمفهوم الأشياء الحسية أولاً ثم التجريدية، و " أن " الكلمات المنطوقة رموز لحالات النفس، والكلمات المكتوبة رموز للكلمات المنطوقة " [٨٨] .

أما الموسوعة الإنجليزية فقد جاء منها: " إن الرمز " مصطلح أطلق علي الموضوع المرئي الذي يمثل بالعقل تشابه " Semblance " شيء غير مرئي " not shown" ولكنه تحقق عن طريق الارتباط به أو التداعي " Association " [٨٩].

إذًا فالرمز ليس نقلاً عن الواقع، وإنما أخذ منه ثم تجاوزه، وتكثيفه ليتخلص من واقع المادة ليرتفع إلى مجال التجريد . وهنا يتحقق الإيحاء" Suggestion " بالانفعالات والأفكار عن طريق إعادة خلقها في العقل كي يتم التعبير عن حالات نفسية تستعصي علي التفسير أو التقرير، كفكرة الحياة والموت واللانهائية وفقدان المعني، ولذا وجد ما أطلق عليه بعدًا ثالثًا: " A third dimension " وهو البعد الإيحائي الذي يحقق التوافق بين المحسوس والمجرد [٩٠].

ثانياً: إن القرآن لا يقصّ قصة إلا ليواجه بها حالة .. ولا يقرر حقيقة إلا ليغير بها باطلاً، فهو يتحرك حركة واقعية حية في وسط واقعي حي، إنه لا يقرر حقائقه للنظر المجرد، ولا يقصّ قصصه لمجرد المتاع الفني [٩١]

ولذا يمكن القول إن الرمزية في قصص القرآن نجدها في تعدد مشاهده في السور لظروف وأسباب يستدعيها المقام، فتجئ مطابقة للأحوال المتعددة وللمواقف الكثيرة، وللنفوس المتغايرة، لأن هذه المعاني أدل في كل أغراض القرآن،

وهـي متـصلة أوثق اتصال بالدلالات الأولي باعتبارها مبعث الإثارة، والطريق إلى المعـاني الـثواني، كـما أنهـا تتـنوع إلى دينـية ونفسية واجتماعية في إطار ديني تدعو إلى العقيدة الصحيحة، وإلى الإيمان بالله، وإلى خلق الأنموذج المتكامل [٢٢].

ومـن نـماذج القصة الرمزية في القرآن قصة آدم فهي من أكثر قصص القرآن ثراء بالجـوانب الرمـزية والمعاني الثواني، وتأخذ مشهد إغواء إبليس لآدم وزوجه والذي ذكـره الله تعـالى في قـوله: " فَوَسْـوَسَ لَهُـمَا الـشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَـوْءَاتِهِمَا وَقَـالَ مَـا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِـدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ "(سورة الأعراف: ٢٠-٢١).وفي قوله تعـالي:"فَوَسْـوَسَ إِلَـيْهِ الـشَّيْطَانُ قَـالَ يَـا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى"(سورة طه: ١٢٠).

أ- لا شـك أن هـذه الأوصـاف التـي خلعهـا إبلـيس علي الشجرة لا تلتقي مع الواقـع، ولا تـستقيم مـع الحـق، وإنما هي من تلفيقات إبليس وأكاذيبه، ليخدع بها ويغـري، ومـع هذا فإن المفسرين والقصّاص قد ذهبوا في الحديث عن نوع الشجرة كل مذهب، مستندين في هذا إلى روايات معزوّة إلى بعض الصحابة والتابعين أو إلى مـا يـرجع إلى مصادر إسرائيلية . والحقيقة أن القرآن الكريم إذ وقف بالشجرة دون أن يحدد نوعها في الحديث إلينا عنها يسمح لأن يكون للشجرة مفهوم خاص عندنا، لا يـدخل فيه نوعها .. أيا كان: فلنحاول أن نفهم ما ترمز إليه هذه الشجرة: إن نهي آدم عـن الاقـتراب مـنها إنـما هـو امتحان له، وابتلاء لعزيمته، أمام الإغراء وحب الاسـتطلاع:" وَلَقَـدْ عَهِـدْنَا إِلَى آدَمَ مِـن قَـبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا "(سورة طه: ١١٥)

ب- إن غريزة حب الاستطلاع أقوي غريزة متحكمة في طفولة الإنسانية كما هي مـتحكمة في طفولة الأطفال، وطفولة الإنسانية كلها، مُندسّة في كيان " آدم " ولهذا فـإن هـذا النهي الذي تلقّاه آدم من ربه عن الاقتراب من الشجرة قد وقع من نفس آدم في موقعين:

١ - موقع الخوف من الجهة التي ألقت بهذا النهي، والحذر من أن يخالف ما نهي عنه .

٢ - الرغبة الصارخة في مداناة هذه الشجرة والتعرف عليها، وعلي ما يمكن فيها .

ثم إلى جانب هذه الرغبة الصارخة إلى مقاربة الشجرة، كانت وسوسة إبليس لآدم، وإغراؤه له . الأمر الذي عجّل بخطوات آدم إلى الشجرة، وسيره حثيثاً إليها، ولو لم يقم إبليس من وراء آدم يغريه بالشجرة ويدفعه إليها، لسار هو وحده نحوها،ولبلغها، ولأكل منها .. ولكن بعد زمن متراخٍ عن هذا الوقت الذي اقترب فيه بالفعل من الشجرة وأكل منها [٩٣] .

وفي القصص القرآني موقف كهذا الموقف الذي كان من آدم إزاء نهيه عن الاقتراب من الشجرة، فلقد نهى " صالح " عليه السلام قومه " ثمود " عن أن يعرضوا للناقة بسوء، فكان هذا النهى منه كأنه إغراء لهم بالعدوان عليها، هذا العدوان الذي كان سبباً في إهلاكهم، وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى في سورة هود " وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ وَيَا قَوْمِ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ "(سورة هود: ٦١-٦٨).

جـ- ولهذا فإن الآيتين الكريمتين: خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ" (سورة الأنبياء: من الآية ٣٧) " وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً " سورة الإسراء: من الآية ١١ تكملان الصورة التي خلق عليها آدم، وإن إغراء إبليس له قد عجّل بظهور الإنسان في آدم.

وهكذا نري أن قصة هبوط آدم كما جاءت في القرآن لها معني ثان غير ظهور الإنسان الأول علي هذا الكوكب، وهو بيان ارتقاء الإنسان من بدائية الشهوة الغريزية إلى الشعور بأن له نفساً حرة قادرة علي الشك والعصيان..

ويقول محمد إقبال: " وليس يعني الهبوط أي فساد أخلاقي، بل هو انتقال الإنسان من الشعور البسيط، إلى ظهور أول بارقة من بوارق الشعور بالنفس .. هو نوع من اليقظة من حلم الطبيعة، أحدثتها خفقة من الشعور بأن للإنسان صلة عليّة بوجوده، ويقول: إن القرآن لا يعتبر الأرض ساحة للعذاب، سجنت فيه إنسانية شريرة العنصر، بسبب ارتكابها خطيئة أصلية فالمعصية الأولي للإنسان كانت أول فعل له،تتمثل فيه حرية الاختيار.. ولهذا تاب الله علي آدم وغفر له"[٢٥] .

دة تؤكد قصة آدم ما للنفس الإنسانية من حرية وخلود، وتضع نظرية محددة معينة في مصير الإنسان بوصفه وحدة من وحدات الوجود، هذه النظرية، في شخصية الإنسان وفرديته يستحيل معها أن تزر وازرة وزر أخري، بل يقتضي أن كل امرئ بما كسب رهين، ولذلك رفض القرآن الكريم فكرة الفداء.

هـ- وهذه الجوانب الرمزية في القصة لا تتنافي مع ما ذكرناه من أن القرآن الكريم لا يقصّ قصة إلا ليواجه بها حالة، ولا يقرر حقيقة إلا ليغيّر بها باطلاً. ومثال علي ذلك ما ورد في ختام قصة آدم وتحذيره وذريته من إبليس وكيده: " يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ " (الأعراف: آية ٢٦-٢٧).

لابد أن نلحظ أن مشهد العري بعد ارتكاب المحظور، والخصف من ورق الجنة، ثم هذا التعقيب بتذكير بني آدم بنعمة الله في إنزال اللباس الذي يواري سوآتهم والرياش الذي يتزينون به، وتحذيرهم من فتنة الشيطان لهم لينزع عنهم لباسهم وريشهم كما نزعه عن أبويهم – لابد أن نلحظ أن ذكر هذه الحلقة من القصة والتعقيب عليها على هذا النحو، إنما يواجه حالة واقعة في المجتمع الجاهلي العربي المشرك، حيث كانوا تحت تأثير أساطير وتقاليد معينة يطوفون بالبيت عرايا، ويحرمون أنواعاً من الثياب وأنواعاً من الطعام في فترة الحج، ويزعمون أن هذا من شرع الله، وأن الله قد حرّم عليهم هذا الذي يحرّمونه علي أنفسهم، ومن ثم الحالة الواقعية في الجاهلية .. وفي كل جاهلية في الحقيقة .. أليست سمة كل جاهلية هي التعري والكشف وقلة الحياء من الله وقلة التقوي؟[١٥].

ثانيا: عناصر القصة في القران الكريم:

على الرغم من أن القرآن الكريم يقصّ علينا القصص لأغراض دينية، فإن ذلك لم يمنع وجود الخصائص الفنية في عرضه للقصص" فالقرآن الكريم يجعل الجمال الفني أداه مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية، بلغة الجمال الفنية "[١٦].

وعناصر القصة هي الركن الأساسي في بنائها، وهى في القصة القرآنية توزع توزيعًا يبلغ حدّ العجب من الناظر فيه بفكر، والمتفطن له بفهم، والفاحص عن أسراره بعمق، فهو يوزّع على أساس إبراز عنصر واحد وإلقاء الضوء القوى عليه حتى يحل مكان الصدارة من القصة أو الأقصوصة وحتى يكاد ما عداه من عناصر أخرى أن يختفي أو يهمل، فلن نجد عناصر الأحداث والأشخاص والحوار مجتمعة في كل قصة قرآنية وموزعة التوزيع الذي يجعل لكل عنصر منها قيمته وخطره في القصة بحيث لو اختفي لاختل التوازن الفني وانهدّ ركن من أركان البناء القصصي لأن هذه الأشياء إنما تُطلب في الرواية وفي القصة الطويلة، والقصص القرآني كان يجرى على أساس الأقصوصة لا القصة الطويلة، وربما أن

توزيع العناصر في القصة القرآنية كان يتبع الغرض الديني ويجرى معه في مضمار، فإننا نرى أن عنصر الأحداث هو العنصر البارز في الأقاصيص التي يقصّد منها إلى التخويف والإنذار، وعنصر الأشخاص هو العنصر البارز في الأقاصيص التي يقصّد منها إلى الإفاضة والإيجاء أو تثبيت المؤمنين، وعنصر الحوار هو العنصر البارز في الأقاصيص التي يقصّد منها إلى الدفاع عن الدعوة الإسلامية والرد على المعارضة وهكذا [٧٧].

الأحداث :

يتناول التعبير القرآني أحداث القصص بريشة التصوير المبدعة التي يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التي يعرضها . وكثيرًا ما يستعين القرآن على إبرازها بوسائل عديدة منها:

أ- الوصف الدقيق المصوّر: كوصف نوح لإعراض قومه عن دعوته[٧٨]، كما في قوله تعالى:" وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا " (سورة نوح: آية٧)

ب – المعاني المعبّرة عن المشاعر والانفعالات والأحوال النفسية: كانفعال لوط عندما جاءته رسل ربه: " وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ " (سورة هود: ٧٧)، لأنه كان يعرف قومه . ويعرف ما أصاب فطرتهم من انحراف وشذوذ عجيبين، ويدرك الفضيحة التي ستناله في ضيوفه [٧٩].

جـ - بإبراز الصراع منسجماً مع المغزى العام للقصة: وهو دائماً صراع الخير والشر، والحق والباطل، أو الإيمان والكفر، أو الفطرة السليمة والطوارئ التي تجنح بها ذات اليمين وذات الشمال . وهذا الصراع يكون حيناً صراعاً مادياً: كموقف موسي عليه السلام مع السحرة لما رمي عصاه ورموا عصيهم: " قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى

وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى "(سورة طه: ٦٥-٦٩).

وحينا صراعاً نفسياً داخلياً كموقف إبراهيم وتجاربه مع الكواكب والقمر والشمس، في رحلته من الإيمان الفطري إلى الإيمان الواعي،حيث وجد حقيقة الألوهية في الوعي والإدراك مطابقة لما استكَن منها في الفطرة والضمير: " فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ "(سورة الأنعام: ٧٦-٧٨) .

وتأتى أهمية الصراع في القصة القرآنية عندما يظهر أثره في ربطه الأحداث من جهة، والشخصيات من جهة أخرى، والحوار من جهة ثالثة، من جميع جهاتها ويستولى عليها ثم يمضى إلى غايته المرسومة: فمثلاً عندما ننظر إلى الصراع في قصة يوسف عليه السلام نجده قائماً بين نفس يعقوب وأبنائه، وبين يوسف وامرأة العزيز، وبين يوسف وإخوته بعد تسلمه مقاليد مصر، نجد الصراع وقد أمسك زمام القصة من جميع أطرافها، وهو الذي قادها ووجه أحداثها وهو الذي كان الجاذب الكبير في مختلف أجزائها، على أنه لم يزد على طبيعته الأصلية التي هى صراع الخير والشر، والحق والباطل، والإيمان والضلال[٩٩] .

وطبيعة الأحداث في القصص القرآني مختلفة فهناك ذلك النوع من الأحداث الذي يكون نتيجة تدخّل عنصر القضاء والقدر في القصة [١٠٠]، فالأحداث التي جرت فيها قصة مولد موسى عليه السلام، تنكشف إرادة الله فيها، وتحدى القدر لفرعون رغم شدة حرصه على قتل أى طفل ذكر يولد، حذراً من أن يكون هلاكه على يديه، كما أخبره بذلك الكهنة ولكن يدّ القدر تقتحم بالوليد على فرعون قلب امرأته، بعد ما اقتحمت به عليه حصنه . لقد حمته بالمحبة . حمته بالحبّ الحاني في

قلب امرأة . وتحدّت به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره .. وهان فرعون على الله أن يحمى منه الطفل الضعيف بغير هذا الستار الرقيق الشفيف من الحبّ [٠٠٢] .. ونلاحظ أن تدخّل القدر في هذه الأحداث كان خفياً، لأن نتائجها لم تنكشف إلا بعد وقوعها بمدة .. ولكن القدر يكون تدخله بطريقة سافرة مكشوفة عندما يتحدى بالخوارق أو المعجزات، وهى الأمور التي يجريها الله على يد رسوله أو يحدثها في الكون استجابةً لدعوة الرسول حين التحدّى وطلب البينة، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: " فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ " (سورة الشعراء ٦٣-٦٦) .أما المفاجأة في الأحداث فهي متنوعة ومختلفة:

فقد يكتم سرّ المفاجأة عن البطل والقرّاء، حتى يكشف لهم معاً في آن واحد، كما في قصة موسى مع العبد الصالح في سورة الكهف [٠٠٣]، حيث تبرز مفاجآتها المتعاقبة . وفي النهاية مع دهشة السرّ المكشوف يختفي الرجل كما بدا، فقد يخطر للأذهان الدهشة بعد أن تصحو أن تسأل: من هذا ؟ ولكنها لن تتلقى جواباً . لقد مضى في المجهول كما خرج من المجهول، فالقصة تمثل الحكمة الكبرى، وهذه الحكمة لا تكشف عن نفسها إلا بمقدار ثم تبقى مجهولة أبداً .

ومرة يكشف السرّ للقراء، ويترك أبطال القصة عنه في عماية، وهؤلاء يتصرفون وهم جاهلون السر، أولئك يشاهدون تصرفاتهم عالمين . وأغلب ما يكون ذلك في موضع السخرية، ليشترك القرّاء فيها، منذ أول لحظة، حيث تتاح لهم السخرية من تصرفات الممثلين [٠٠٤] . كما وقع في قصة أصحاب الجنة في سورة القلم: " وَلَا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا

ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ " (سورة القلم آيات ١٨-٣٣).

وهذه القصة قد تكون متداولة ومعروفة، ولكن السياق القرآني يكشف عمّا وراء حوادثها، من فعل الله وقدرته، ومن ابتلاء وجزاء لبعض عباده ويكون هذا هو الجديد في سياقها القرآني .. ومن خلال نصوصها وحركاتها نلمح مجموعة من الناس بدائية أشبه في تفكيرها وتصورها وحركتها بأهل الريف البسطاء السذج . ولعل هذا المستوى من النماذج البشرية كان أقرب إلى المخاطبين بالقصة، الذين كانوا يعاندون ويجحدون، ولكن نفوسهم ليست شديدة التعقيد، إنما هي أقرب إلى السذاجة والبساطة ..

والقصة من ناحية الأداء تمثل إحدى طرق الأداء الفني للقصة في القرآن وفيها مفاجآت مشوقة، كما أن فيه سخرية بالكيد البشرى العاجز أمام تدبير الله وكيده .. وفيه حيوية في العرض حتى لكأن السامع – أو القارئ يشهد القصة حية تقع أحداثها أمامه وتتوالى، فيعلم ما لا يعلمه أصحاب الجنة من أمرها .. فقد شهد تلك اليد الخفية اللطيفة تمتدّ إليها في الظلام، فتذهب بثمرها كله .. وهذا لون من ألوان التناسق في التعبير الفني القرآني، يضاف إلى نظائره هنالك.

والله سبحانه وتعالى يسوق إلى قريش هذه التجربة من واقع البيئة، ومما هو متداول بينهم من القصص، فيربط بين سنته في الغابرين وسنته في الحاضرين، ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم . وفي الوقت ذاته يشعر المؤمنون بأن ما يرونه على المشركين – من كبراء قريش – من آثار النعمة والثروة إنما هو ابتلاء من الله، له عواقبه، وله نتائجه . وسنته أن يبتلى بالنعمة كما يبتلى بالبأساء سواء . فأما المتبطرون المانعون للخير المخدوعون بما هم فيه من نعيم، فذلك كان مثلاً لعاقبتهم: " ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون " . وأما المتقون الحذرون فلهم عند ربهم جنات النعيم: " إن للمتقين عند ربهم جنت النعيم " .. وهو التقابل في العاقبة، كما

أنـه الـتقابل في المـسلك والحقـيقة ... تقابل النقيضين اللذين اختلفت بهما الطريق، فاختلفت بهما خاتمة المطاف[١٠٥].

١- ومرة يكشف بعض السرّ للقراء، وهو خاف على البطل في موضع، وخاف عـلى القـرّاء وعن البطل في موضع آخر، في القصة الواحدة . مثال ذلك قصة عرش بلقيس الذي جئ به في غمضة، وعرفنا نحن أنه بين يدى سليمان، في حين أن بلقيس ظلـت تجهل ما نعلم: " فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ " (سورة النمل من آية ٤٢) فهـذه مفاجآت عرفنا نحن سرها سلفاً، وهذه المفاجآة الضخمة لم تكن لتخطر على بـال الملكـة ولذلك جاء ردّها: " قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ " (سورة النمل من آية ٤٢)، وهذا الرد لا ينفي ولا يثبت " ويدل على فراسة وبديهة في مواجهة المفاجأة العجيبة .

وهـنا فجـوة في الـسياق، فكـأنما أخـبرت بـسرّ المفاجـأة، فقالت: إنها استعدت للتـسليم والإسـلام مـن قـبل . أي منذ اعتزمت القدوم على سليمان بعد رد الهدية. وكان سليمان – عليه السلام – قد أعد للملكة مفاجأة أخرى لم يكشف السياق عنها بعـد، كما كشف عن المفاجأة الأولى من قبل ذكر حضورها – وهذه طريقة أخرى في الأداء القرآني في القصة غير الطريقة الأولى: " قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّـةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْـلَمْتُ مَـعَ سُـلَيْمَانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِـينَ " (سـورة الـنمل: آيـة ٤٤).. لقد كانت المفاجـأة قـصراً مـن البلّور، أقيمت أرضيته فوق الماء، وظهر كأنه لجّة . فلما قيل لها: ادخـلي الـصرح، حسبت أنها ستخوض تلك اللجة، فكشفت عن ساقيها . فلما تمت المفاجـأة كشف لها سليمان عن سرها .. ووقفت الملكة مفجوءة مدهوشة أمام هذه العجائـب التـي تعجـز البـشر، وتـدل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البـشر . فـرجعت إلى الله، وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره، معلنة إسلامها " مع سليمان " لا لسليمان ولكن " لله رب العالمين " .

وهكـذا سـجّل الـسياق القـرآني هـذه المفاجـآت وأبـرزها في أحـداث القـصة، للكـشف عـن طبـيعة الإيمان بالله، والإسلام له . فهي العزة التي ترفع المغلوبين إلى

صـف الغالبين بل التي يصبح فيها الغالب والمغلوب أخوين في الله . لا غالب منهما ولا مغلوب وهما أخوان في الله ... رب العالمين – على قدم المساواة"[١٠٦].

وقـد لا يكـون هناك سراً، بل تواجه المفاجأة البطل والقرّاء في آن واحد ويعلمان سرهـا في الـوقت نفـسه .. وذلك كمفاجآت قصة مريم، حين تتخذ من دون أهلها حجاباً، فتفاجأ هناك بالروح الأمين في هيئة رجل، فتقول: " قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا "(سورة مريم من آية ١٨). لقد عرفنا قبلها بلحظة أنه " الروح ولكـن الموقف لم يطل فقد أخبرها: " قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا " (سورة مريم من آية ١٩) . وقد فوجئنا كذلك معها، إذا جاءها المخاض إلى جذع النخلة: " فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا "(مريم:٢٣-٢٤).

والقـصص القرآنـى يُـبرز أحداثـه ويـصوّرها بعاملـين أساسـيين، همـا الزمان والمكان.

أولاً: العنصر الزمنى:

إن العنصر الزمني مما تقوم عليه القصة الناجحة، فإن الخيوط الزمنية تمسك بكل جـزئيات القصة حتى تطلع بها في الوقت المنشود . كما أن اختفاءه يستوجب اختفاء عنـصر مهـم مـن القصة.. ولذلك قبل أن نتحدث عن العنصر الزمني في القصص القرآني، يجب أولاً أن ندرك مفهوم الزمان في القرآن الكريم..

الزمان في القرآن الكريم:

في القرآن أنواع من الزمان أبرزها ثلاثة:

١ـ الزمان الكوكبي:

وهو هذا الزمان الذي نقيم عليه حساباتنا، من أيام وأقسامها ومضاعفاتها . وفيه يقـول الله تعـالى: " وَجَعَلْـنَا اللَّـيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْـصِرَةً لِتَبْـتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ

تَفْصِيلاً " (سورة الإسراء: ١٢) .

أ – وبهذا الزمان الكوكبى تتحدّد أعمار الأفراد ومراحل السنّ [٣٠] .

ب- وهو الزمان الذي تتحدّد به العبادات اليومية [٣١] .

جـ- والعبادات السنوية أو عبادة العمر كالحج [٣٢] .

د- ويربط العبادات ذات الطابع الاقتصادي والاجتماعي كالزكاة، بالزمان، فيقول عن الثمار: " وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ "(سورة الأنعام من آية ١٤١).

هـ-ويربط به أعمار الأمم ودورات ازدهارها وأفولها [٣٣].

٢ـ ما قبل الزمان الكوكبى:

يقول تعالى: " وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ"(سورة ق:٣٨) . والكواكب بما فيها من أجرام نعلم بها عدد السنين والحساب داخلة ضمن هذا " الخلق "، فمفهوم " يوم " في هذه الآية مختلف عن " اليوم " الذي نتعامل به في حياتنا .

٣ـ ما بعد الزمان الكوكبى:

يقول تعالى عن يوم القيامة: " يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ " (سورة إبراهيم:٤٨) .

وترد في القرآن الكريم آيات تدل على طول ذلك اليوم، بعد أن تبدل الأرض غير الأرض والسماوات: " تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ "(سورة المعارج: آية ٤) ويقول:" وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ" (سورة الحج من آية ٤٧) .

٤ـ الزمن النفسى:

وفيه يبدو إحساس الإنسان بطول الزمن أو قصره . ويضرب الله مثالاً، بحوار يدور يوم القيامة: " قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ" قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ

يَـوْم فَاسْـأَلْ الْعَـادِّينَ قَـالَ إِن لَّبِثْـتُمْ إِلَّا قَلِـيلًا لَّـوْ أَنَّكُـمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ " (سورة المؤمنون آيات ١١٢-١١٥) .

وصـفوة القـول إن الـزمان في القرآن: مقاييس معلومة، ومقاييس مجهولة سابقة ولاحقة، وإحساس به، قصراً أو امتداداً، يطغى على القياس المعلوم [١١١] .

الزمان والتجربة الشعورية:

تـشير بعض آيات القرآن الكريم [١١٢]، بما تبين من حقيقة ما نعلمه عن الزمان، إلى وجود مستويات للشعور مجهولة لنا .. إن المعضلة الوجودية التي تواجهنا هي كيف نحدد طبيعة الوجود النهائية . فكون العالم يلبث في زمان أمر لا يقبل الشك، ولكن لأن الزمان خارج عن أنفسنا يمكن أن نشك في وجوده..

الحقـيقة أن التغـير المـستمر لا يمكـن تـصوره من غير زمان، مقياساً على تجربتنا الباطـنة يكـون معنـى الوجـود الـشعوري، الوجود في زمان، على أن إنعام النظر في طبـيعة الحـياة الـشعورية يظهـر أن الـنفس في حـياتها الباطـنة تتجه من مركزها إلى الخـارج، وربما جاز لنا أن نقول في وصفها إن لها قوتين: القوة العالمة، والقوة العاملة . وقـوة الـنفس العاملـة تـتعلق بـما نـسميه عـالم الحيز – وهو موضوع علم النفس الارتباطـي المعـروف " بالمذهب الحسي " – أي النفس العملية التي تتصل في الحياة اليومـية بالترتيب الخارجي للموجودات التي تعين حالات شعورنا العابرة وتطبعها بـصفاتها المتحيـزة التـي تعـزل كـلاً مـنها عـن الآخـر ... والتعمق في تحليل الحياة الشعورية يكشف لنا الناحية العالمة في النفس، فنحن نغوص في أعماق نفوسنا ونبلغ المركـز الـداخلي للتجربة في لحظات التأمل العميق فقط عندما تكون النفس العاملة معطلـة . وحـالات الـشعور في حياة هذه الذات العميقة تذوب كل واحدة منها في الآخري ... وزمان النفس العالمة يبدو كأنه آن مفرد، تحيله النفس العاملة في اتصالها بالعـالم المتحيز إلى سلسلة من الآنات كحبات اللؤلؤ المنظومة في خيط واحد ؛ وعلى هذا فإن فيها ديمومة بحتة لا تشوبها شائبة الحيّز..

ويشير القرآن بما تميّز من وضوح وبساطة إلى ظاهرتي تعاقب المدة وعدة تعاقبها في الآيات الآتية: " وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا " (سورة الفرقان:٥٨-٥٩) – و " إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ" (سورة القمر:٤٩-٥٠) .

إننا إذا نظرنا إلى الحركة المتضمنة في الخلق من الخارج وهى ما أطلقنا عليه اسم " ما قبل الزمان الكوكبي " وحاولنا فهمها عقلياً، وجدناها قد استغرقت آلاف السنين، لأن اليوم الإلهي في لغة القرآن يعدل ألف سنة حسب ما أخبرنا الحق سبحانه وتعالى في قوله: " وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ " (الحج: من آية ٤٧). وهذا الخلق الذي استغرق آلاف السنين هو من وجهة نظر أخرى فعل مقرر غير منقسم " كلمح بالبصر "، على أنه يستحيل علينا أن نعبّر في كلمات عن هذا الإدراك الباطني للديمومة البحتة، لأن اللغة تكيفت بالزمان المجرد، زمان النفس الفاعلة في كل يوم [١١٣].

أما إذا رجعنا إلى التأمل في القرآن الكريم، نجد فيه كلمة من حرفين، تعبّر عن أقصى مدى التعبير عن تصوّر السرعة، هذه الكلمة هى " كن " وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ "(سورة البقرة من آية ١١٧). وهى تعبير عن مقياس السرعة الإلهية، التي تعتبر السرعة الضوئية بالقياس إليها سرعة السلحفاة، أو أدنى من ذلك ... فبين الكاف والنون تتم إبداعات القدرة الإلهية، بمقياس كوني يلغى الزمن، فلا يجعله شرطاً لإبداع الخالق، وإن جعلته الإرادة المبدعة بعداً رابعاً للوجود، وشرطاً لاستمراره، فالزمن مخلوق كما أن المادة مخلوقة . ومن مدلول السرعة الكُنّية، حيث لا زمن، ومدلول السرعة السلحفائية .إن صح التعبير – تقع كل احتمالات قياس السرعة على اختلاف تصوراتها من جاذبية، إلى صوتية، إلى ضوئية ... وعلى هذا لا يكون ما نقول عن السرعة الكُنّية (بين الكاف والنون) متعارضاً مع ما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى: " وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا

يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا " (سورة الفرقان ٥٨: ٥٩) .. لأن هذه مشيئة الإرادة التي تملك الإنجاز في لا زمن، كما تملكه في نطاق الزمن، وهى التي ربطت بين المادة والزمن [١١٤] .

نعود إلى النفس العاملة حيث نجد إنها بمثابة جهاز مصحح للنفس الفاعلة، من حيث إنها تركب في كلية الشخصية المتماسكة جميع " الهنات " (الهنا بالفتح تستعمل للمكان الحسي)، والآنات – أي التعبير القليل في المكان والزمان مما لا غنى عنه للنفس الفاعلة . فالزمان المحض إذاً، كما يكشفه التحليل العميق لحياتنا الشعورية، ليس خيطاً من لحظات متفرقة متقلبة، وإنما هو كل مركب، ليس الماضي فيه متخلفاً، ولكنه متحرك مع الحاضر ويؤثر فيه – والمستقبل يتصل بهذا الكلّ المركب لا بوصفه موجوداً أمامه، ليجتاز بعد، وإنما يتصل بهذا الكل المركب بمعنى إنه ماثل في طبيعته في صورة إمكان قابل للتحقيق [١١٥] .

والزمان باعتباره كلا مركباً . هو الذي يسميه القرآن التقدير: " إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ " (سورة القمر: ٤٩)، و " التقدير " هو الزمان عندما ننظر إليه على أنه سابق على وقوع إمكانياته، هو الزمن الخالص من شباك تتابع العلّة والمعلول، أي حالة الرسم البياني التي يفرضها الفهم المنطقي على الزمان، وبالاختصار هو الزمان كما نشعر به، لا كما نفكر فيه أو نحسبه . ولذا وجب أن يأتي بعد " التقدير " قوله تعالى: " وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ " (سورة القمر ٥٠) فهي إشارة واحدة. . أو كلمة واحدة يتم بها كل أمر: الجليل والصغير سواء . وليس هنالك جليل ولا صغير . إنما ذلك تقدير البشر للأشياء . وليس هنالك زمن ولا ما يعادل لمح البصر، إنما هو تشبيه لتقريب الأمر إلى حس البشر . فالزمن إن هو إلا تصور بشرى ناشئ من دورة أرضهم الصغيرة، ولا وجود له في حساب الله المطلق من هذه التصورات المحدودة [١١٦].

والقصة القرآنية تساعد على توضيح أحداثها باستخدام أساليب الزمان الأربعة،

ففي قصة يوسف نقرأ ثلاثة أساليب في معاملة الزمان:

١- ذكر العشاء في قصة إخوة يوسف لأنه جزء من الليل يمكن فيه تدبير الجريمة . ولذلك تستر إخوة يوسف في ظلامه، وجاءوا فيه إلى أبيهم يخبرونه هذا الخبر المشئوم المكذوب " وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ "(سورة يوسف ١٦)..فهذه الجزئية من جزئيات الزمن حرص القرآن على ذكرها لأن لها مكاناً في سير أحداث القصة .. ذلك أن ظلام الليل الذي أظلّ هذا الكذب الذي وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله: " وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ "(سورة يوسف:١٨). هو نفسه الظلام الذي نم على الكذب، ودل عليه، وألقى في خاطر الأب، أن أبناءه لو كانوا صادقين فيما أخبروا لسارعوا إلى أبيهم بالحدث في وقته، لأن مثل هذا الحدث لا يسكت عليه لحظة[١١٧].

٢- بعد أن أبى يوسف الاستجابة لمراودة امرأة العزيز، وشهد شاهد من أهلها، بما يثبت براءته . قال العزيز: " يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ " (يوسف:٢٩) . . ولكن أصرّت امرأة العزيز على متابعة ما هي فيه. ويأتي قول الله تعالى: " ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ "(يوسف ٣٥) .. وتسير القصة حتى ينبئ يوسف صاحبيه في السجن ما رأيا في المنام، " وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ " (سورة يوسف:٤٢) .

ونقف عند قوله تعالى: " حتى حين " وقوله " بضع سنين " فالمدة التي قضاها يوسف – رغم أهميتها – غير محددة في القصة . " وبضع " لغوياً قد تكون بين الثلاث والتسع، وعدم التحديد هنا يزيد من الإحساس بالظلم الواقع على يوسف، وبفساد نظام الحكم وقتئذ، فساداً يمكن أن يبقى فيه البريء سجيناً مدة لا حساب للزمن فيها، السجين دفعته أهواء الحكم وسلطة الحاكمين إلى السجن، وقد تدفعه إلى النور شهادة ساقي الخمر، أو وساطة من حاشية الحاكم[١١٨]، ومن ناحية أخرى يبرهن عدم التحديد على أن يوسف ذو عزم متين وصبر عجيب[١١٩] .

٣- ويبدو حساب الزمن دقيقاً إذا كنا بسبيل التخطيط وإنقاذ الناس من المجاعة المنتظرة، لا مجال هنا لبضع سنين أو إلى حين . ولكن المجال تجميع جهود وتحديد مدة وتنظيم عمل، وفي هذا يقول الله تعالى عن الخطة التي رسمها يوسف ليقابل بها المجاعة المنتظرة: " قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ "(يوسف: ٤٧- ٤٩) .

والخطة ثلاث مراحل: سبع سنين لكل من المرحلتين الأولي والثانية وواحدة للمرحلة الثالثة . ولكل من الثلاث عمل يختلف عن الأخرى:

الأولي: تحديد مدة، إنتاج زراعي، ينبغي أن يرتفع فيه معدل الإنتاج، " دأباً "، ومع وفرة الإنتاج تقييد الاستهلاك ويتمثّل في قوله تعالي: " إلا قليلاً مما تأكلون " وذلك من أجل ادخار أكبر قدر ممكن من المحصول يتمثل في قوله تعالى: " فما حصدتم فذروه في سنبله" .

الثانية: مرحلة استهلاك منظم يتوفر فيها عدالة التوزيع ودقته فلا يأتي الاستهلاك علي كل المخزون، ويتمثّل هذا في قوله تعالى: " يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون".

الثالثة: مرحلة إعادة الاستثمار، وذلك بعد ارتفاع الفيضان – بعد قحط السنوات السبع – فتجد الأرض البذور المدّخرة، فيزرع الناس ويحصدون ويعصرون.

ارتبط حساب الزمان هنا بالتخطيط والعدل، كما ارتبط إغفال الزمان بالتسيب والظلم، وكان تعريف الزمان وتنكيره، عاملاً ساعد علي إبراز الظاهرة الاجتماعية، ويبدو من هذا كيف تخدم الحقيقة التاريخية هدف القصة في القرآن، وأن تحديد الزمان فيه، علي أساس انتقائي، مرتبط بالهدف وهو العبرة، دون اقتصار علي مجرد المعرفة [١٢٠].

وفي خواتيم هذه السورة نقرأ الربط بين السرد والهدف في قوله تعالى:

" لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " (سورة يوسف: آية ١١١).

ونلاحظ كذلك في قصص القرآن الكريم، أنه يسلك بالزمن – إذا تناوله – مسلك التدرج في تتابع أحداثه، إلا في موضع واحد فيما نذكر .. وهو قصة البقرة التي لم تذكر في القرآن الكريم أكثر من مرة واحدة .. فإن الله سبحانه بدأ في هذه القصة بذكر الشطر الثاني منها[١١١]، فعندما نقرأها نقف أمام مجهول لا نعرف ما وراءه، فنحن لا نعرف في مبدأ عرض القصة لماذا يأمر الله بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة، كما أن بني إسرائيل إذ ذاك لم يعرفوا، وهذا اختبار لمدي الطاعة والاستجابة والتسليم ... ولذلك تم تأخير الشطر الأول، فقد كانت العناية متجهة إلى ناحية الحوار في أمر البقرة، ولونها وصفاتها الأخرى، فلا نري الحوار ينقطع ليثبت ما دار بين موسي وربه، ثم يعود إليهم بالجواب... ولكن سياق القصة لا يقول: إنه سأل ربه ولا أن ربه أجابه .. ليكون في ذلك أيضاً تشويق لمبدأ القصة .. فإن داعية المعرفة تتحرك لطلب السبب في أمر الله جل شأنه بني إسرائيل بذبح البقرة[١١٢]: " وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَاء اللّهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ " (سورة البقرة ٦٧-٧١) ثم تنتهي إلى المباغتة في الخاتمة – كما بوغت بها بنو إسرائيل – انتفاض الميت مبعوثاً ناطقاً، علي ضربة من بعض جسد

لبقرة بكماء مذبوحة، ليس فيها من حياة ولا مادة حياة [١٢٣] " وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ "(سورة البقرة ٧٢-٧٣).

ثانياً: العنصر المكاني:

يقرّر القرآن الكريم أن العالم لم يُخلق عبثاً: " وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ "(سورة الدخان ٣٨-٣٩)، وهذه الحقيقة، يجب أن تُوضع موضع الاعتبار: " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ " (سورة آل عمران ١٩٠-١٩١) .. وفوق هذا فالعالم مرتب علي نحو يجعله قابلاً للزيادة والامتداد: " يزيد في الخلق ما يشاء "(سورة فاطر: ١)..فليس هذا العالم كتلة، وليس جامداً غير قابل للتغيّر والتبدّل، بل ربما استقرّ في أعماق كيانه حلم نهضة جديدة: " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " (سورة العنكبوت: آية ٢٠).

والحق أن حركات الكون واهتزازاته الخفيّة، وهذا الزمان السابح في صمت يبدو لأنظارنا البشرية في صورة تقلّب الليل والنهار، يعدّه القرآن إحدى آيات الله الكبرى: " يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَارِ "(سورة النور: ٤٤).

وهذا الامتداد العظيم في الزمان والمكان يحمل في طيّاته الأمل في أن الإنسان الذي يجب عليه أن يتفكر في آيات الله سيتم غلبته علي الطبيعة بالكشف عن الوسائل التي تجعل هذه الغلبة واقعة [١٢٤].

وسوف يوضّح لنا " المكان " في القصة القرآنية، طبيعة هذا الأمل وإمكانية

تحقيقه، واضعين في الاعتبار الناحية الفنية في ذكر المكان، فالقرآن الكريم لم يلتفت لذكر المكان في القصة إلا إذا كان له وضع خاص يؤثر في سير الحدث أو يبرز ملامحه أو يقيم شواهد نفسية وروحية تفتقدها القصة [١٢٥]:

ولذلك يختلف مدى وضوح المكان من قصة إلى أخرى:

(أ) فقد يذكر المكان باسمه الصريح المعروف كالمسجد الحرام والمسجد الأقصى [١٢٦]. فلا يختلف فيه وقت نزول القرآن ولا بعده .

(ب) وقد يذكر الاسم العلم ولكن يختلف في تحديد موقعه كالجودي: جبل نوح [١٢٧].

(جـ) وقد يذكر بصفته كـ " ربوة ذات قرار ومعين " [١٢٨] فتتعدد في تفسيرها وتحديدها الآراء.

(د) وقد تذكر القصة دون إشارة إلى المكان مثل قصة إدريس [١٢٩].

(هـ) وقد يذكر اسم صاحب القصة دون أن تذكر قصته كذي الكفل [١٣٠] وقوم تُبَّع [١٣١].

(و) وقد ينسب صاحب القصة إلى المكان كأصحاب الرَسِّ [١٣٢] دون عرض القصة.

(ز) وقد تذكر القصة دون تحديد لمكانها ولا اسم صاحبها كقصة الرجل المؤمن في سورة يس [١٣٣].

(حـ) وقد تذكر مجموعة من الأقاصيص في نسق واحد كأنها قواعد تسير عليها الرسالات مثل قوله تعالى: " أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ "(سورة إبراهيم:٩).

وتتتابع بعد هذا الآيات توضح ما حدث للرسل وأقوامهم وجزاء من اتبعوهم ومن أعرضوا عنهم في الدنيا والآخرة ...

الوحدة الجغرافية: التوزيع والعلاقات:

أولاً: منطقة القلب:

أهم مكان يعني به القرآن الكريم هو المسجد الحرام . وهذا البيت هو مركز منطقة القلب في قصص القرآن والتاريخ الإنساني التي ذكر الله فيها أكبر عدد من الأسماء متجمعة: البيت . مكة . مقام إبراهيم . الصفا . والمروة . عرفات . المشعر الحرام.

ثانياً: نطاق الغزوات:

وحول منطقة القلب هذه نطاق أوسع يمكن أن نسميه " نطاق الغزوات " جاءت فيه الأماكن الآتية: " المدينة [١٣٤]، " بدر " [١٣٥]، " حنين " [١٣٦].

وفيها نري اتساعاً في المساحة وقلة في عدد الأماكن المذكورة بأسمائها[١٣٧].

ثالثاً: الدائرة الثالثة:

وإذا اعتبرنا البيت الحرام أو مكة مركز دائرة نصف قطرها نحو ١٢٠٠ كيلو متراً، وجدنا اليمن والعراق والشام ومصر علي محيط هذه الدائرة أو قريباً منها . وفي نطاق هذه الدائرة أو الحلقة الثالثة وقعت معظم أحداث القصص القرآني:

١- ومن المركز يمتد محور جنوبي إلى اليمن وبه قصص عاد ونبيهم هود: " وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ "(سورة الأحقاف من آية ٢١).. وهي جبال الرمل باليمن ويصف الله مواطنهم بالغني.

جاء في هذا المحور ذكر سبأ:

" لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ" (سورة سبأ: من آية ١٥) ولا زالت آثار السد والجنتين باقية.

٢- ومن المركز يمتد محور شمالي، يذكر فيه الله عدة أماكن متتابعة علي طريق التجارة.

أ- قري لـــوط في قوله تعالى: " وَجَاء أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ " (سورة الحجر: ٦٧) . ثم وصفها بقوله: " وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ " (سورة الحجر:٧٦) . وهي المؤتفكات في قوله تعالى: " وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى "(سورة النجم:٥٣)

ب- أصحاب الأيكة في قولـه تعالى: " وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ " (سورة الحجر:٧٨) وهي مدين في قوله تعالى: " وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا "(سورة الأعراف: ٨٥).

جـ- ديار ثمود وهم أصحاب الحجر في قوله تعالى: " وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ " (سورة الحجر: ٨٠-٨٣).

وتضم هذه الأماكن قصص لوط، وشعيب نبي مدين، صالح نبي ثمود ...

فروع المحور الشمالي: ويتفرع هذا المحور إلى ثلاث شعب:

أ- الأولي: شمالية تصل بنا إلى المسجد الأقصى في قوله تعالى:

" سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ "(سورة الإسراء:١).

وذكر الله ديار الروم في قوله تعالى: " غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ "(سورة الروم ٢-٤).

ب- الثانية: شمالية شرقية: ويمكن أن نعتبرها امتدادا لقوس بلاد الشام الموصل إلى العراق . وإليها جاءت الإشارة في قوله تعالى:

" وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ"(سورة البقرة: من آية ١٠٢).. وتتصل بالعراق قصص نوح وإبراهيم.

جـ- الثالثة: شمالية غربية: إلى مصر . وردت باسمها الصريح كما وردت سيناء: " أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي "(سورة الزخرف:من آية ٥١).

" وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ "(سورة المؤمنون: آية ٢٠) .. وترتبط بها قصص إدريس – في بعض الأقوال – وإبراهيم، وإسحاق وبنيه، وإسماعيل ويوسف، وموسي، وعيسي، ومحمد في ليلة الإسراء وبولده إبراهيم من مارية القبطية [١٣٨]

الوحدة الجغرافية والعبرة من القصص:

١ - هناك ارتباط قوي بين منطقة القلب ومناسك الحج وقصص إبراهيم وإسماعيل ومحمد – صلي الله عليهم وسلم -. ولازالت هذه المنطقة قلب العالم الإسلامي النابض بالأمر الإلهي لإبراهيم: " وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ " (سورة الحج:٢٧) .

٢ - ثم هناك الرحلات التجارية التي قام بها سكان منطقة القلب إلى اليمن جنوباً والعراق والشام ومصر شمالاً والتي نقرأ توقيتها في قوله تعالي: " لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ "(سورة قريش). وكيف أن هذا التنظيم والتدبّر فيه آية تدعو إلى الإيمان وعبادة الله..

٣- وفي الحلقة الوسطي أماكن الغزوات، وترتبط جميعاً بسيرة النبي بما فيها من عبر تمثل فيها غزوتا بدر وحنين..

٤ - أما الحلقة الثالثة: فالله يصف بعض قصصها بأنها لسبيل مقيم، وبإمام مبين وخاطبنا عن قوم لوط:" وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ "(سورة الصافات: ١٣٧-١٣٨). فاعتبر هذا المرور من وسائل التفكر والتأمل .. فهذه الأماكن إذاً من وسائل التأمل . وهي بهذا تساعدنا علي زيادة الاعتبار من القصص..

قصص لم يذكر الله مكانها في القرآن:

ومع هذا لا يمكن القول بإن قصص القرآن كله له ارتباطاته المكانية التي يمكن إدخالها في حلقة من الحلقات السابقة، ويمكن تقسيم هذا القصص إلى مجموعتين:

المجموعة الأولي:

قصص ما قبل الطوفان وبخاصة قصة آدم، وتشمل قصص إدريس ونوح. وفي هذه المجموعة لا نكاد نجد ذكراً للمكان إلا ما جاء في أمر الجودي في قصة نوح . ولازال موضعه محل جدل . والمكان رغم ضآلته في هذه المجموعة أوضح في القصص المتأخر – نوح – عن القصص الأقدم – آدم وإدريس – والجوديّ مرتبط بأحداث ما بعد الطوفان . وعلي هذا نستطيع أن نستبعد التحديد المكاني استبعاداً كاملاً من قصص ما قبل الطوفان [١٣٩].

المجموعة الثانية:

قصص سورة الكهف . وإن كثرت فيها الأقوال، ويهمنا في دراسة هذه المجموعة أنها تعطي الامتداد المكاني في التاريخ في قول الله تعالى: " حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ"(من آية ٨٦)" حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ "(من آية ٩٠).. ولا يصرفه التجوال عن مسئوليات محددة عليه أن يحملها: " حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا "(آية ٩٣).. وهنا أقام معهم السد محكماً قوياً وشاركوا في العمل . وعندما رفعه واختبره قال: " هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي " (من آية ٩٨)وبين قصتي " أصحاب الكهف، وذي القرنين، نجد قصة موسي والعبد الصالح، وهي قصة لم يطلبها كفار قريش ؛ ثم قصتي "آدم" وقصة الصاحبين " ..وهذا الإغفال أو التعميم الذي نراه في الأماكن، يمكن أن نراه في نواح أخري من قصص الكهف مثل عدد أصحاب الكهف .. وفي قصة ذي القرنين عبارات عامة .. حتى أنه ذكر بصفته دون اسمه .. فإذا لجأت قريش إلى يهود تستنصرهم علي النبي وتحاول أن تأخذ من الكتب القديمة مادة تمتحن بها الوحي من جهة وتحدي النبي بهذه القصص أن يخرجوا بأسئلتهم عن النطاق الجغرافي الذي ظل فيه قصص القرآن .. والحق أن الآيات أتت من عند الله تحسم هذه الاتجاه، وليأت في عدد أصحاب الكهف:" سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ

رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاء ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا " (آية ٢٢) ولنقف كثيراً عند الأمرين الأخيرين في هذه الآيات ثم نقرأ نهي الله نبيه عن الارتباط مع اليهود أو قريش بموعد يتعلق بالوحي: " وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا "(آية ٢٣).

ولعلّنا بذلك نستطيع أن ندرك جانباً من العبرة في وضع قصة موسي والعبد الصالح بين قصتي أصحاب الكهف وذي القرنين . فالصحبة بين موسي والعبد الصالح تستمر ما دام موسي متبعاً شرط العبد الصالح: " فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا "(آية: ٧٠) بعد أن مهّد لذلك بتحذيره:" قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا "(٦٧-٦٨).

وتأتي المشكلات – كما يقول القرطبي (١٤٠) – قريبة مما حدث في حياة موسي، فيقول في تفسير الآيات التي وقعت لموسي مع العبد الصالح: إنها حجة علي موسي، وعجباً له. وذلك أنه لما أنكر أمر خرق السفينة نودي: يا موسي أين كان تدبيرك هذا وأنت في التابوت مطروحاً في اليم، فلما أنكر أمر الغلام قيل له: أين إنكارك هذا من وكْزك القبطيّ وقضائك عليه، فلما أنكر إقامة الجدار نُودي: أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر. ومع هذا لم يستطع موسي الصبر . وكان سكوته إن سكت فاتحًا لباب العلم وسؤاله حين سأل مغلقًا هذا الباب. وأحسب أنه من هذه الرواية نستطيع أن نلمس جانبًا من النهج الذي ساق الله به قصص هذه السورة بالذات.

وصفوة القول في المكان:

إنه لم يكن من أهداف القرآن أن يستغرق الأماكن حصرًا وتسجيلا. وإنما اكتفي بأن أورد لنا نمطا واضحاً من الدراسة يتمثل في مركز ودوائر متتابعة في الاتساع ومحاور تربط بين القلب والأطراف، فالقلب هو البيت الحرام، وهو مركز التاريخ الإنساني: أول بيت وضع للناس، وحوله دائرة الغزوات حيث يتمثل الدفاع عن

العقيدة وحمايتها، وتليها دائرة الاعتبار في القصص الممتد علي المحورين الشمالي بفروعه والجنوبي، ثم دائرة واسعة غير محدودة تمثل وجوب السير في الأرض لمزيد من الاعتبار، سيراً إلى مطالع الشمس ومغاربها، وعملاً في مجال العقيدة، والإنشاء والتعمير، والحصول علي مزيد من العلم مع التواضع الدائم لله: " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا " (سورة العنكبوت من آية ٢٠) وهي بدورها ممهدة لتطوير المجتمعات وبناء أفضل للتاريخ الإنساني، وهي معان تمثلها جميعاً قصص سورة الكهف دون أن تنفرد بها [٤٤].

القدرة الإلهية وحواجز الغيب:

١ - لقد مزَّق القرآن حواجز الغيب وحاجز الزمن الماضي، وحاجز الزمن المستقبل، وحاجز المكان، علي أن هناك أيضًا حاجزًا آخر، هو حاجز النفس البشرية، ما يخفيه الإنسان داخل نفسه.

ولقد مزَّق القرآن حاجز الزمن الماضي، فيخبرنا بما حدث للأمم السابقة ويقصّ علينا قصص الرسل السابقين، ويكفي أن نقرأ في القرآن: ما كنت، وما كنت، وما كنت: لنعرف كم أخبر الله رسوله بأنباء من الغيب الماضي:

" وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ "(آل عمران من آية ٤٤) و" وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ "(القصص من آية ٤٤)

و " وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا " (سورة القصص من آية ٤٥).

و " وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ " (القصص من آية ٤٦).

وهكذا نري أن القرآن مزَّق حجاب الزمن الماضي في أكثر من مناسبة ليخبر محمدًا - عليه الصلاة والسلام- بالأخبار الصحيحة عمَّن سبقوه من الرسل

والأنبياء ... ويصحّح ما حُرّف من الكتب السماوية، ذلك لأن التحدي للقرآن من تمزيق حجاب الزمن الماضي، وصل إلى أدقّ أسرار الرسالات السماوية الماضية فصحّحها لهم، وبيّن ما حرّفوه منها وما أخفوه، وتحدّاهم أن يكذّبوا ما جاء في القرآن فلم يستطيعوا، ومن ذلك قوله تعالي: " ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ "(سورة مريم: ٣٤).

ثم بعد ذلك مزّق القرآن حجاب المستقبل: انظر إلى قوله سبحانه وتعالى " سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ " (سورة القمر: آية٤٥) تبشّر بانتصار المسلمين في بدر، وقد نزلت هذه الآية في مكة والمسلمون قلّة. وكذلك قوله سبحانه وتعالي: " الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ "(سورة الروم: آيات ١-٥). ثم يمضي القرآن ليمعن في التحدي: " وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ "(سورة الروم: ٦).

لقد قصَّ القرآن أنه بعد بضع سنين ستحدث معركة بين الفرس والروم وينتصر فيها الروم..

ثم مزّق الله حجاب المكان لمحمد صلي الله عليه وسلم، وجاء في أدقّ الأمور وهو حديث النفس: " ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله " .. فالقرآن هنا لا يقول لهم لقد هتكت حاجز الماضي، وأخبرتكم بأنباء الأولين ولا يقول لهم سأهتك حاجز المكان، وأخبركم بما يدور في بقعة قريبة لا تَرَونها، بل يقول: سأهتك حاجز النفس، وأخبركم بما في أنفسكم، أي بما في داخل صدوركم بما لم تهمس به شفاهكم، وكان يكفي لكي يكذّب الكافرون محمداً أن يقولوا لم تحدثنا أنفسنا بهذا، إذًا فالقرآن في هَتكِه لحجاب المكان دخل إلى داخل النفس البشرية، وإلى داخل نفوس غير المؤمنين الذين يهمهم هدم الإسلام، قال تعالي: " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ

حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ "(سورة المجادلة:٨).

وبعد أن وجدنا أن لكل من الزمان والمكان أثرهما في بناء القصة القرآنية وفي إلباسها ثوباً من الواقع الذي يجتذب إصغاء القارئ وانتباهه نجد أيضاً ما يقابل ذلك تماماً إذ كثيراً ما يعرض الحدث مجرداً عن ذكر الزمان والمكان اللذين وقع فيهما، مع عدم الإخلال بسير الحادثة، بل إنه قد يضيف إليها جمالاً في الأداء ولنستمع إلى قوله تعالى: " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ "(سورة البقرة: آية ٢٤٣). في أي أرض كانوا؟ وفي أي زمان خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حذر الموت؟ لم يذكر النص القرآني ذلك مع الوضع في الاعتبار أن الله سبحانه وتعالى لو أراد بياناً عنهم لبيَّن، كما يجئ القصص المحدد في القرآن، إنما هذه عبرة وعظة يراد مغزاها، ولا يشكل المكان والزمان أهمية فيها إذ أن تحديد الأماكن والأزمان لا يزيد هنا شيئاً علي عبرة القصة ومغزاها، إنما يُراد هنا تصحيح التصور عن الموت والحياة، وأسبابهما الظاهرة، وحقيقتهما المضمرة، وردّ الأمر فيهما إلى القدرة المدبِّرة، والاطمئنان إلى قدر الله فيهما، والمعني في حمل التكاليف والواجبات دون هلع ولا جزع، فالمقدر كائن، والموت والحياة بيد الله في نهاية المطاف. يراد القول: إن الحذر من الموت لا يجدي وأن الفزع والهلع لا يزيدان حياة، ولا يمدان أجلاً، ويردان قضاء، وأن الله هو واهب الحياة، وهو آخذ الحياة، وإنه متفضل في الحالتين: حين يهب وحين يسترد، والحكمة الإلهية كامنة خلف الهبة وخلف الاسترداد، وأن مصلحة الناس متحققة في هذا وذاك، وأن فضل الله عليهم متحقق في الأخذ والمنح سواء... ثم جاء قوله تعالى بعد هذه الأقصوصة، أو القصة الذريعة:" وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ "(سورة البقرة آية ٢٤٤).. هنا ندرك طرفاً من حكمة الله في سوق هذه التجربة للجماعة المسلمة في جيلها الأول، وفي أجيالها جميعاً ... ألا يقعدن بكم حب الحياة، وحذر الموت، عن الجهاد في سبيل الله . وبعد تقرير تلك الإيحاءات الإيمانية التربوية الكريمة، التي تضمنتها الحادثة يأت بعد ذلك دور الجمال الفني في الأداء: " ألم تر إلى الذين خرجوا من

ديارهم وهم ألوف حذر الموت ؟ " .. إن في التعبير استعراضاً لهذه الألوف ولهذه الصفوف استعراضا ترسمه هاتان الكلمتان: " ألم تر؟ " .. وأي تعبير آخر ما كان ليرسم أمام المخيلة هذا الاستعراض كما رسمته هاتان الكلمتان العاديتان في موضعهما المختار .. ومن مشهد الألوف المؤلفة الحذرة من الموت، المتلفتة من الذعر .. إلى مشهد الموت المطبق في لحظة، ومن خلال كلمة: " موتوا " .. كل هذا الحذر، وكل هذا التجمع، وكل هذه المحاولة .. كلها ذهبت هباء في كلمة واحدة: " موتوا " .. ليلقي ذلك في الحس عبث المحاولة، وضلالة المنهج؛ كما يلقي صرامة القضاء، سرعة الفصل عند الله..

" ثم أحياهم " .. هكذا بلا تفصيل للوسيلة .. إنها القدرة المالكة زمام الموت وزمام الحياة، المتصرفة في شؤون العباد، لا ترى لها إرادة، ولا يكون إلا ما تشاء.. وهذا التعبير يلقي الظلّ المناسب علي مشهد الموت ومشهد الحياة: " وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ"(سورة البقرة:٢٤٤-٢٤٥).

ونحن في مشهد إماتة وإحياء . قبض للروح وإطلاق .. فلما جاء ذكر الرزق كان التعبير: " والله يقبض ويبسط " .. متناسقاً في الحركة مع قبض الروح وإطلاقها في إيجاز كذلك واختصار:

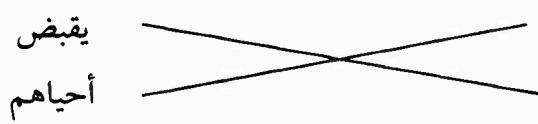

وهكذا يبدو التناسق العجيب في تصوير المشاهد إلى جوار التناسق العجيب، في إحياء المعاني وجمال الأداء بالرغم من إغفال عنصري الزمان والمكان [٥٤].

٢- الشخصيات:

إن المذهب المتّبع في رسم الشخصيات في القصة القرآنية أو في معظمها على أقل تقدير كان المذهب غير المباشر، أي عرض الشخوص في تفكيرهم وأعمالهم،

وحركاتهم، ويترك لنا نحن التعرف عليها من طرق تفكيرها ونهج أعمالها وسبحات روحها حتى لكأنها الشخص الذي نعاشره منذ زمن فعرفنا خلقه ومزاجه وطوايا عقله وحنايا فؤاده [١٤٣] .

وهذا المذهب سمة فنية محضة، وهو بعينه غرض للقصص الفني المجرد – وها هو ذا القصص القرآني، ووجهته الأولي هي الدعوة الدينية، يُلمّ في الطريق بهذه السمة أيضاً، فتبرز في قصصه جميعاً، ويرسم بضع " نماذج إنسانية " من هذه الشخصيات، تتجاوز حدود الشخصية المعينة إلى الشخصية النموذجية[١٤٤].

ومهما تكن صورة هذه الشخصية فإنها بطبيعة الحال هي التي تحرِّك الأحداث، وتضطرب بها، أو تقوم الأحداث نفسها بتحريك الشخصيات، أو تتساوق وتتوازن، فلا تطغى الشخصية علي الحدث، ولا يطغى الحدث على الشخصية [١٤٥].

فالقرآن حرص علي إحداث الترابط الوثيق بين الشخص والحدث مع الوحدة في أخلاقيات الشخصية فلا تتغير ملامحها، أو تبهت صورها فلا تقوم علي وجه واحد دون اضطراب أو تناقض أو تبديل وتحوير[١٤٦].

لذلك لم يعن القرآن برسم الخطوط الشكلية للشخصية، وإبراز ملامحها الخارجية، كما يفعل بعض المولعين بالقصّ، فيذكرون مثلاً لون الشعر والعينين ووصف الفم والأنف والجبين، وتشبيه نبرات الصوت والمشية، وتفسير نظرات الفرح، والحزن والغضب، وابتسامات البراءة والمكر والسخرية، ونحو ذلك من الأوصاف الفيزيولوجية التي تجعل الشخصية كأنها ماثلة للعيان، لأن ذلك كله لا يخدم أي غرض ديني من أغراض القصة القرآنية، وإنما يكشف القرآن عن مزاج الشخصية، وعن دوافعها وانفعالاتها، وسلوكها من خلال الوصف، أو سرد الأحداث بصورة عرضية لم تقصد لذاتها بالأصالة [١٤٧].

الأشخاص والأبطال:

إن القرآن الكريم ليس مجرد تاريخ أنبياء ولا تاريخ ملوك، فمن الأنبياء من أغفل

القـرآن ذكره " مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ" (سورة غافر مـن آية ٧٨)، وعنايته بالملوك والحكام محدودة وما ذكره القرآن عن الملوك والحكام ليس سوي نماذج أعطاها تبيِّن مشاهد من الحكم، لتكون لمن بعدهم عظة وذكرى.. والقـرآن الكـريم يذكـر من الأسماء ما تدعو إليه حاجة القصة، حتى تترك أثرها في نفـس القـارئ أو الـسامع، ولا يـسرف في ذلك البيان حتى لا تفتر روعته... ولكنه يمـثل للقارئ أو السامع صوراً حية تهز المشاعر في دائرة تدور حولها أحداث القصة .. ويتطلب ذلك في القصص القرآني بالذات، أن تكون الأشخاص كائنة في الوجود ومعروفة مستيقنة لكل من القارئ والسامع..

ولهـذا التأكـيد البالغ لوجود الشخصيات التي ذكرها القصص القرآني بأسمائها، أثر بعيد في الأحداث التي تشارك فيها . وفي الأعمال التي تضاف إليها .. حيث يري المـرء وحـدة الحـركة بـين الشخصيات والأعمال التي تصدر عنها .. وحقًا لا تلوح لعـين الناظـر شخـصيات مهزوزة متعددة تحاول كل منها أن تمسك بالحدث بعد أن يـبرز ويأخـذ مكانه في الوجود [١٤٨]. ولذلك عندما نبحث في شخوص القرآن . نجد أنهـا تعكـس نظـرة القـرآن الكلـيّة لأمـر الوجـود ؛ النظرة التي تضم المبدأ والمعاد، والإنـسان والكـون، ومناشط الحياة الإنسانية حتى أن القرآن يتحدث عمّا صغُر من الخلـق كالنمل، كما يتحدث عمّا عظُم كالسماء ذات البروج ومواقع النجوم .. وهذه النظـرة تنعكس علي شخوص التاريخ في القرآن وأبطاله، فشخوص القرآن مجموعة بـشرية مـتكاملة بحيث كانت مصادر للإلهام وأسوة للناس مصداقاً لقوله تعالى فيما قـصّ عـلي رسـوله عن الأنبياء: " أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ "(سورة الأنعـام مـن آيـة ٩٠). وإذا كـان المصطفي – وهو رحمة الله المهداة وخاتم النبيين – يدعـوه ربه إلى الاهتداء بمن سبق من الأنبياء، فما أحرانا أن نطيل الوقوف عند هذه النماذج الإنسانية، ومن ارتبط بقصصهم، أو جاهد علي فترة منهم [١٤٩].

في الأنبـياء نجـد نـماذج مـتكاملة مـن الأعـمار، طفولة عيسي، وشباب إبراهيم، وكهـولة محمـد، ثـم شيخوخة إبراهيم ونوح . ويقابل هذا من النساء: طفولة مريم

وشبابها ونضج امرأة فرعون وإيمانها، ثم زوج إبراهيم، وقد تقدمت بها السن: " قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ "(سورة هود: آية ٧٢).

ونقرأ نماذج متعددة من الأسرّ وموقع الأسرّ وموقع المؤمن فيها: نجد الابن المؤمن والأب الكافر في قصة إبراهيم، والأب المؤمن والابن الكافر في قصة نوح، والزوج الصالح والزوجة الطالحة، في قصة نوح أيضاً، والزوجة المؤمنة والزوج الكافر في قصة امرأة فرعون، والأب الصالح وقد توزع أبناؤه بين الصلاح والحسد والأحقاد كيوسف وإخوته، حتى أكرم الله الجميع بالنبوة وجمع الشمل: " قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ " (سورة يوسف الآيتان ٩٢-٩٣) . ويختبر الله الإنسان في صحته وماله كما في قصة أيوب . وفي الهجرة من وطنه وهي قدر أكثر من نبي ورسول . وقد تنهي حياته بأن يموت شهيداً كما في قصة يحيى، وقد يلقى في السجن كيوسف، وقد يختبره الله بإقبال الدنيا كسليمان: " قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ "(النمل: من آية ٤٠).

وقد يُبتلى بأن يَصرف عنه قومه، ويَرموه بالجنون والسحر والكهانة والكذب، وقد لقي الرسول هذا كله واحتمله، ونفي القرآن الكريم هذا كله، وسجّل الصراع الشديد وصبر الرسول والمؤمنين معه. يقول تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ "(سورة البقرة من آية ٢١٤).

وبذلك نري في القصص القرآني رحمة الله وقد أدركت رضيعاً لا يدرك من أمره شيئاً: " وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ"(القصص:٧).

وشابا وقف وحيداً يدافع عن الحق: " قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ

"(سورة الأنبياء: ٦٠) ثم كان من قومه أن " قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ "(الأنبياء: ٦٨-٦٩).

وتدرك شيخاً كبيراً أمضي السنين داعياً إلى الله فلم يستجب له إلا القليل، يقول الله تعالى عن نوح: " فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ "(الأعراف: آية ٦٤).

وقد تدرك الرحمة وحيداً كيونس عندما ابتلعه الحوت ثم نبذه في العراء أو جمعاً محصوراً بين الماء والعدو: " فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ "(الشعراء: ٦١-٦٢) .

وقد تكون النجاة برًا، كما في هجرة المصطفى من مكة إلى المدينة، أو بحراً كما في قصة نوح والسفينة [١٥٠] .

رسم الشخصيات في القصة:

الأشخاص في القصص القرآني من نوع الشخصيات النامية، أي التي تتطور وتنمو قليلاً قليلاً، بصراعها مع الأحداث أو المجتمع، فتتكشف للقارئ كلما تقدمت في القصة، وتفجؤه بما تغني به من جوانبها وعواطفها الإنسانية المعقدة، وهذا التصوير الفني للشخصيات يقدمه لنا القرآن بشكل مقنع، فلا يعزو إليها من الصفات إلا ما يبرر موقفها تبريراً موضوعياً في محيط القيم التي تتفاعل معها..

وفي كل قصة من قصص القرآن تقريباً، نجد شخصاً أو أشخاصاً يقومون بدور رئيس فيها، إلى جانب شخصيات أخري ذات دور أو أدوار ثانوية، يقوم بينهم جميعاً رباط يوحد اتجاه القصة ويتضافر علي ثمار حركتها، وعلي دعم الفكرة أو الأفكار الجوهرية فيها، وذلك بتلاقيهم في حركتهم نحو مصائرهم، وتجاه الموقف العام في القصة، ويلاحظ في التصوير القرآني لهذين النوعين من الشخصيات أنهما مأخوذان من واقع الحياة، وكل شخصية منهما لها دورها ورسالتها التي تؤديها في خدمة أغراض القصة وأهدافها [١٥١].

ومن النماذج الإنسانية التي قدمتها القصة القرآنية، وتجاوزت بها حدود الشخصية المعينة إلى الشخصية النموذجية، نشير فيما يلي إلى أبرز شخصيات القصص القرآني:

١ـ شخصية إبراهيم:

لقد كانت شخصية إبراهيم محوراً لأحداث مختلفة كشفت عن ملامحها في تطور رائع، إنه أنموذج الهدوء، والتسامح والحلم: " إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ " (هود: ٧٥، والتوبة:١١٤) فهاهو ذا في صباه، دائب التفكير والتأمل يبحث عن ربه: " فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ "(الأنعام: ٧٦-٨٠).

ثم وهو يحاور أباه في معبوده، ويقنعه أن يهجر عبادة مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئاً، وينهاه عن عبادة الشيطان، لأنه يخاف عليه أن يسمه عذاب من الرحمن، ويكون للشيطان ولياً. ويقف الأب من ابنه موقفاً غليظاً صلباً ويأمره أن ينتهي عن آرائه ومعتقداته، ويعجب منه كيف يرغب عن آلهة أبيه، ثم يهدده بالرجم، أو الطرد إن لم ينته ويتراجع . ويبقي الفتي أديباً، باراً، محباً لأبيه، جديراً بتحمل رسالة السماء، متلطفاً في جوابه لأبيه، فيقول له: " قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا " (مريم: ٤٧-٤٨) . وإبراهيم الهادئ الرزين الوقور في صباه، وشبابه يبقي هو هو في شيخوخته، بل تزيده الشيخوخة وقاراً ورزانة، وعقلاً. ذلك أنه حين ينزل في مكة مع أهله وأسرته يجد الأرض قفرًا، والدنيا قحلاً، والمكان جدبيًا، فيرفع يديه إلى السماء ضارعًا إلى من آمن به ويجأر

داعياً: " رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ " (سورة إبراهيم:٣٧) ومثل هذا الهدوء والإيمان، وطاعة الله تتجلّى حين يري في المنام أنه يذبح ابنه، فيلبي، ويطيع، وتكون معجزة الفداء بذبح عظيم [١٥٢].

وهكذا برزت شخصية إبراهيم المثالية من خلال هذه المواقف، فكان مثلاً في حصافة الرأي، وحب التطلع إلى اليقين، والامتثال لأمر الله في تفانٍ وإخلاص، والرفق والحلم والرأفة والحنان . وقد تجمع في شخصه من جليل الخصال ما تفرق عن غيره من الناس علي مدي الأجيال. فكان أمة بذاته كما أثنى الله عليه: " إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا للهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ"(سورة النحل: ١٢٠-١٢٢).

ولا عجب، فإبراهيم صاحب القلب الكبير الذي وسع الناس بمحبته ولينه، يحنو علي قومه، رغم إيذائهم له . فهو لا يطلب العذاب والهلاك لمن عصاه، وإنما يكلهم إلى رحمة الله وغفرانه فيقول عن قومه " رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ "(سورة إبراهيم:٣٦).

كما أن ما جُبِل عليه من سخاء ورأفة أبان عنه احتفاؤه بضيوفه وإكرامهم، وسؤال ربه أن يعفو عن قوم ابن أخيه لوط، وقد أبلغه ضيوفه من الملائكة أنهم مرسلون إلى لوط ليأمروه بالخروج من القرية مع أهله قبيل الصبح، موعد هلاك قومه . فكان يجادل ربه في شأنهم رجاء أن ينظر إليهم بعين الرحمة [١٥٣].

وبينما يرسم بعض القصص القرآني لشخصية إبراهيم هذه السمات نراه يرسم لشخصية " موسي " مثلاً سمات أخرى، منها ما يلتقي معها، وفيها ما يقابلها. فيجعل منه أنموذجاً للزعيم القوي المندفع بحدة الطبع والمزاج، وسرعة الانفعال، وحساسية الوجدان. ولعل هذه السمات هي التي جعلت نجاحه قوياً في قيادة شعب صلب المراس، معقد النفسية، وهو شعب بني إسرائيل الذي كان من طبعه

التلكؤ في الطاعة، والجمود في المشاعر، والمراوغة، والسخرية في المواقف الجدية، ومقاومة شيع الحكام المصريين الذين كان من أخلاقهم البغي والكبر، واحتقار الفقراء والضعفاء، وتقديس الكبراء وذوي الثراء: " اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ"(سورة الأنعام: من آية ١٢٤).

٢ـ شخصية موسي: أنموذج للزعيم المندفع العصبي المزاج:

فها هو ذا قد رُبّي في قصر فرعون، وتحت سمعه وبصره، وأصبح فتي قوياً: " وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ " (سورة القصص: من آية ١٥) وهنا يبدو الانفعال العصبي واضحاً..

وسرعان ما تذهب هذه الدفعة العصبية، فيثوب إلى نفسه شأن العصبيين: " قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ"(سورة القصص من آية١٥-١٧). " فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ "(سورة القصص من آية ١٨)... وتعتبر مصور لهيئة معروفة: هيئة المتفرع المتلفت للشر في كل حركة . وتلك سمة العصبيين أيضاً.

ومع هذا، إنه ينظر: " فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ"(سورة القصص: من آية ١٨). ولكنه يهمّ بالرجل الآخر كما همّ بالأمس، وينسيه الاندفاع استغفاره وندمه وخوفه وترقبه، لولا أن يذكره من يهمّ به بفعلته، فيتذكر ويخشى: " فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ "(سورة القصص:١٩). وحينئذ ينصح له بالرحيل رجل جاء من أقصي المدينة يسعى، فيرحل عنها كما علمنا . فلندعه هنا لنلتقي به في فترة ثانية من حياته بعد عشر سنوات، فلعله قد هدأ وصار رجلاً هادئ الطبع حليم النفس:

كـلا، فهـا هو ذا ينادى من جانب الطور الأيمن: أن ألق عصاك فألقاها فإذا هي حـية تسعي وما يكاد يراها حتى يثب جرياً، لا يعقب ولا يلوي . إنه الفتي العصبي نفـسه ولـو أنـه قـد صـار رجلاً، فغيره كان يخاف نعم، ولكن لعله كان يبتعد منها، ويقف ليتأمل هذه العجيبة الكبرى[١٥٤]..

ثم لندعه فترة أخري، لنري ماذا يصنع الزمن في أعصابه:

لقد انتصر علي السحرة، وقد استخلص بني إسرائيل، وعبر بهم البحر، ثم ذهب إلى مـيعاد ربه علي الطور، وإنه لنبي . ولكن ها هو ذا يسأل ربه سؤالاً عجيباً: " قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُـرْ إِلَـيْكَ قَـالَ لَن تَرَانِي وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَـرَانِي "(سورة الأعراف من آية١٤٣).. ثم حدث مالا تحتمله أية أعصاب إنسانية: " فَلَـمَّا تَجَـلَّى رَبُّـهُ لِلْجَـبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَـيْكَ وَأَنَـا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِـينَ "(سـورة الأعـراف:١٤٣).. عـودة العـصبي في سرعـة واندفاع!

ثـم هـا هـو ذا يعود، فيجد قومه قد اتخذوا لهم عجلاً إلهًا، وفي يديه الألواح التي أوحاهـا الله إلـيه، فـما يتريّث وما ينى: " وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ "(سـورة الأعراف من آية١٥٠)... وإنه ليمضي منفعلاً يشد رأس أخيه ولحيته ولا يـسمع لـه قـولاً: " قَـالَ يَـا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي "(سورة طه:٩٤)..

وحـين يعلـم أن " السامري " هو الذي فعل الفعلة، يلتفت إليه مغضباً، ويسأله مـستنكراً. حتـى إذا علـم سرّ العجـل: " قَـالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا " (سورة طه:٩٧) .. وهكذا في حنق ظاهر وحركة متوترة..

فلـندعه سـنوات أخـرى: لقـد ذهـب قومه في التيه ونحسبه قد صار كهلاً حينما افـترق عـنهم، ولقـي الـرجل الـذي طلـب إليه أن يصحبه ليعلّمه مما آتاه الله علماً .

ونحن نعلم أنه لم يستطع أن يصبر حتى ينبئه بسرّ ما يصنع مرة ومرة ومرة، فافترقا ...

تلك شخصية موحدة بارزة، وأنموذج إنساني واضح في كل مرحلة من مراحل القصة جميعاً [١٥٥]. وهكذا نلاحظ أن إبراز سمات الشخصية في القرآن يقوم علي مبدأ عام يسمي في علم النفس " اتساق شخصية الفرد " بحيث إن سلوكه يتناغم بصفة مستمرة مع الظروف الداخلية والخارجية التي يتعرض لها، وذلك بما يحمل من خصائص معينة تلازمه من موقف لآخر، وتؤثر في سلوكه، وتحدّد وجهته ونمطه .. وما ذلك إلا لأن القرآن قد عبّر بأمانة عن تصرف الشخصية في مواقفها، واستخدم دقّة التعبير عن مشاعرها، وصدق الترجمة الباطنية عن خواطرها. فهي رغم تعدد مواقفها وتنوعها في مواطن متفرقة من القرآن لا يتناسق جمعها في موضع أو سورة، لانعدام الوحدة الموضوعية بينها، لكنا نجد في تلك الشخصية من توافق العناصر، وائتلاف الصفات، وتفاعل السمات المزاجية والخلقية علي الخصوص. ما يلقي الأضواء علي جوانبها النفسية [١٥٦].

فإذا انتقلنا إلى شخصية يوسف عليه السلام، وما كان فيها من سمات تترجح بين الإنسانية والمثاليّة بين مطلع حياته، وفي كنف أبيه يعقوب عليه السلام، وفي بيت عزيز مصر، ثم في جلوسه أمينا علي خزائن الأرض وحاكماً..ومثل شخصية يوسف المترجّحة بين الإنسانية والمثاليّة شخصية سليمان عليه السلام، وقصته مع ملكة سبأ، إنها تعكس مرة صورة الإنسان، وأخري صورة النبي، وثالثة هذه وتلك، دون أن تطغي واحدة علي الأخرى[١٥٧].

الأبطال المجهولون:

ومما تفرّد به القرآن عنايته بالأبطال المجهولين، فيخصص لهم عدداً من الآيات، وتفاصيل من الحوار وإشادة بالمواقف، ويسلّط عليهم من الأضواء أكثر مما يسلّط علي بعض الأنبياء .. وقد تجاوز القرآن في هذه المجموعة من القصص بعض عناصر التحديد من الأسماء والأماكن والأزمنة، وإن تباين هذا التجاوز من قصة إلى

أخري، وأكثر نماذج الأبطال المجهولين تفصيلاً في القرآن هي " مؤمن آل فرعون ": وتبدأ قصته من قوله تعالي:

" وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ " (سورة غافر:٢٨) إلى قوله تعالي:" فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهَ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ "(سورة غافر: ٤٤-٤٦).

ثم يذكر بعد ختام القصة ومشاهد القيامة، قاعدة وثيقة الصلة بكل داع إلى الله: " إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ " (سورة غافر ٥١-٥٢).

والقصة مما تفرّد به القرآن، وهي درس عن الحق والدعوة إليه، لجأ فيها المؤمن إلى تذكير قومه بالآخرة، ثم ذكّرهم بقوم نوح وعاد وثمود، وربط جحودهم بما حدث من آبائهم بعد وفاة يوسف: " حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا " (سورة غافر:٣٤). وكيف وقف المؤمن يعارض فرعون، وهو يأمر وزيره هامان أن يبني له صرحاً يبلغ به أسباب السماوات ليطلع إلى إله موسي. ثم دعا قوم فرعون إلى اتّباع الحق . وصرّح الرجل بإيمانه بعد أن كان يكتمه، وحذر قومه مغبة سيئات ما مكروا . ونجّى الله المؤمن وحاق بآل فرعون سوء العذاب [١٥٨].

وهذا النظر مما يلقي الضوء علي مثل قوله الله عز وجل: " وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ " (سورة يس:١٣-١٤).. ونقرأ حتى آخر القصة نجد خلوّها من الأسماء .. حتى للمرسلين .. فهذه الشخصيات المغطّاة النكرات لا

تدعو ضرورة إلى كشفها أو التعريف بها، لأنها لا تؤدي دورها في الحدث القصصي هنا باعتبارات خاصة مميّزة لها .. وإنما هي مثل عام لجنسها كله في صلاحيته للقيام بهذا الدور.. ومن هنا تكون عمومية المثل وصلاحيته وشموله لجميع الأفراد فيما ضرب له، وسيق من أجله، ولأن غرض السامعين أو القارئين، وعبرة القصة، ونتاج الموعظة لا تستدعي أكثر من ذلك[١٥٩].

مما سبق عرضه يتضح لنا أن المحور الرئيس لهذه القصص جميعاً هو الإيمان بالله تعالي، إلا أن نشاطات هؤلاء الأبطال في المجتمع متنوعة، وتمثل الحرف الرئيسة زراعة وصناعة وتشييداً...

وهذه البطولات المجهولة ممتدة ولا تزال تظهر في نصرة الحق. يقول الله تعالي: " مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا " (سورة الأحزاب:٢٣)

وجزاء الله لكل عامل من هؤلاء قائم:

" فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ "(سورة آل عمران: ١٩٥)

والآيات دعوة إلى متابعة المسيرة في بناء الحياة علي الخير وعمرانها بالعمل الصالح وهي تنير السبيل أمام بطولات جديدة دون أن تقتصرها علي مواقع محددة من المجتمع . وصفوة القول إن البطولة في القرآن لا تقتصر علي الأنبياء، وإن كان لهم فيه النصيب الأوفى، ولا تقف كثيراً عند الملوك، وإنما تمتد مظلتها لتشمل الأبطال المجهولين والجموع المؤمنة .. وإذا كانت العناية قد زادت في الاتجاهات التاريخية المعاصرة بحركات الشعوب والجماعات الإنسانية، وفيها الكثير من البطولات المجهولة . فإن قطاعات التاريخ التي عرضها القرآن الكريم تضم هذا جميعاً وتتسع له[١٦٠].

شخصية المرأة:

جاء القرآن الكريم بحقوق مشروعة للمرأة لم يسبق إليها في دستور شريعة أو دستور دين، وأكرم من ذلك لها أنه رفعها من المهانة إلى مكانة الإنسان المعدود من ذرية آدم وزوجه، وبرّأها من رجس الشيطان ومن حِطّة الحيوان..

وأعظم من جميع الحقوق الشرعية التي كسبتها المرأة من القرآن الكريم لأول مرة أنه رفع عنها لعنة الخطيئة الأبدية ووصمة الجسد المرذول. فكل من الزوجين قد وسوس له الشيطان واستحق الغفران بالتوبة والندم[١٦١]:

" فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا "(سورة الأعراف:٢٠)

وكلاهما ظلم نفسه بذنبه:

" قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ "(سورة الأعراف:٢٣). وليس علي ذريّة آدم وزوجه من بنين وبنات جريرة تلحقهم بعد أبويهم أو تلحق أحداً من الأبناء بجريرة الآباء:

" تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ " (سورة البقرة: ١٣٤)

ولذلك حرص القرآن الكريم في قصصه علي تقدير المساواة بين الرجل والمرأة، في طبيعتها البشرية، وأنه ليس لأحدهما من مقومات الإنسانية أكثر مما للآخر، وأنه لا فضل لأحدهما علي الآخر بحسب عنصره الإنساني وخلقه الأول، وأن المفاضلة بين أي رجل وأية امرأة إنما تقوم علي أمور أخري خارجة عن طبيعتهما، وهي الأمور المتعلقة بالكفاية والعلم والأخلاق.. وما إلى ذلك، كما هو شأن المفاضلة بين الرجال أنفسهم بعضهم مع بعض[١٦٢].

وتبرز المساواة بينهما في القيمة الإنسانية المشتركة، في قصة إبراهيم وتبشيره بغلام، فقد كانت البشارة مرة له: " وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ " (سورة الذاريات:٢٨)

ومرة لزوجه " فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ "(سورة هود:٧١).. وذلك لا يدلّ علي أن في القصة واقعتين مختلفتين، أو أن القرآن يتناول مسائل التاريخ في حرية فنية، كما يري الناظرون في قصص القرآن [١٦٣]، ولكنه يدلّ علي نظرة القرآن إلى الزوجين وكأنهما شيء واحد في الشعور الإنساني . فإسحاق ابنهما معاً، فهما شريكان في هذه المنة [١٦٤].

ويتضح من ذلك أن القرآن الكريم أعطي للمرأة مكانة واضحة في القصة لأمرين أولهما ارتباط القصة بالدعوة [١٦٥] . وثانيهما إبراز مساواتها مع الرجل في صفاته الطبيعية .جسمانية وعقلية وروحية.. وإن كان هناك شيء من التمييز فإنه يدعو إليه تنسيق العناية الإلهية.. كما يشير إلى ذلك قوله سبحانه:" هو الذي خلقكم من نفس وحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها . فلما تغشها حملت حملاً خفيفاً فمرت به"(سورة الأعراف:١٨٩).

فإذا ذكرت المرأة في القرآن أو في قصص القرآن فذلك لأن وضعها يستوجب لها ذلك. وحكم الواقع والمجتمع والنظام يقتضيه [١٦٦].

وبالنظر والتأمل نجد النواحي التي تدمج المرأة في القصص القرآني الكريم تقرر في النفوس معاني هي بالمرأة ألصق وأنوثتها بها أحق. كما أنها تحقق عبراً لا تتحقق دون ذكر المرأة فنذكر من ذلك علي سبيل المثال:

١ـ عاطفة الأمومة:

تتمثل بمميزاتها في المرأة ولا تتمثل بغيرها، وكذلك الحنان الأنثوي والعطف الإنساني، وذلك كله يتحقق في قصة ميلاد موسي:

" وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ

حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ "(سورة القصص:٩-١٣).

تتجلّى هنا يد القدرة الإلهية في حماية موسي، حمايته بالمحبة، ذلك الستار الرقيق الشفيف، لا بالسلاح ولا بالجاه ولا بالمال، حمته بالحبّ الحاني في قلب امرأة، وتحدّت به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره – وهان فرعون على الله أن يحمي منه الطفل بغير هذا الستار الشفيف[١٦٧]

٢ـ الحياء والخجل:

فالحياء الطبيعي والخجل المحبب لا يتجلى علي وجهه الصحيح الصادق في غير المرأة ولننظر في قصة موسي مع بنات شيخ مدين: " وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" (القصص:٢٣-٢٥).

ونقف هنا عند قوله تعالي: " تمشي علي استحياء " حيث تبرز فيه مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة النظيفة حيث تلقي الرجال ." علي استحياء" في غير ما تبذل ولا تبرج ولا تبجح ولا إغواء . جاءته لتنهي إليه دعوة في أقصر لفظ وأوجزه وأدلّه:" إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا". فمع الحياء الإبانة والدقة والوضوح، لا التلجلج والتعثر والربكة . وذلك كذلك من إيحاء الفطرة النظيفة السليمة المستقيمة . فالفتاة القويمة تستحي بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم، ولكنها لثقتها بطهارتها واستقامتها لا تضطرب. الاضطراب الذي يطمح ويغري ويهيج، إنما تتحدث في وضوح بالقدر المطلوب.

٣ـ الفكر المستقل والإدارة المتحررة:

لقد أخذت المرأة مكانها في القصص القرآني، كإنسان لها شخصيتها التي تعبّر

عـنها بالقـبول والرفض، والفكر المستقلّ، والإدارة المتحررة، وكامرأة لها خصائص أنوثـتها.. فقـد اسـتطاعت امرأة فرعون أن تحرر فكرها ووجدانها من كل الأواصر والمؤثـرات والقيود، فترفض أن تسير في ركاب زوجها، وأن تنساق في تيار المجتمع الـذي تعـيش فـيه، بـل تعلـن عن موقفها في ثبات وإيمان، بعد أن اتضح لها ضلال فـرعون وقـومه، وتبين لها الحق في دعوة موسي، رغم ضغط المجتمع وشدة وطأته، ورغـم مغـريات الحـياة الـرخيّة الناعمة في قصر أعظم ملوك الأرض، ورغم آصرة الـزوجية التـي تربطها بفرعون فكانت مثلاً للشخصية الإنسانية المستقلة في الإيمان بالمبادئ والقيم[١٦٨]:

" وَضَرَبَ اللهُ مَـثَلًا لِّلَّـذِينَ آمَـنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَـنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْـصَنَتْ فَـرْجَهَا فَنَفَخْـنَا فِـيهِ مِـن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ" (سورة التحريم:١١-١٢)

وإفـراد امرأة فرعون بالذكر هنا مع مريم ابنة عمران يدل علي المكانة العالية التي جعلـتها قـرينة مـريم في الذكـر، بـسبب ملابسات حياتها.. فهما الاثنتان أنموذجان للمـرأة المتطهـرة المـصدقة القانـتة .. ولا يعنينا هنا التحقيق التاريخي لشخص امرأة فـرعون .. فالإشـارة القـرآنية تعنـي حقـيقة دائمـة مـستقلة عـن الأشـخاص، والأشـخاص مجـرد أمـثلة لهـذه الحقـيقة، فالقـرآن الكـريم يستخدم الحادثة المفردة لتـصوير الحقـيقة المجـردة، الباقـية وراء الحادثة ووراء الزمان والمكان[١٦٩].. أما ذكر اسـم مريم كاملاً فهو اصطفاء لمريم بالذات وهو اختيارها دون نساء العالمين كلهن: " وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ" (سورة آل عمران:٤٢-٤٣)- اختـيارها لتـضع مولودا دون أن يمسها رجل.. ولذلك لم يذكر القرآن الكريم اسم امرأة فرعون، لأن القرآن حين تأتي أخبار المعجزات والقصص الإيمانية، لا يذكر الله سبحانه وتعالى الاسم كاملا ، لأن هذه لمحات إيمانية مقصود أن يقتدي بها الناس ..

ولو أنهم ذكروا بأسمائهم كاملة، لكانت هذه المعجزات خاصة بهم لا تتكرر لغيرهم .. إلا مريم – فكلما ذكرت في القرآن [١٧٠] .. لأن معجزة الميلاد من أنثى بلا ذكر لن تتكرّر بالنسبة لنساء العالمين كلهن إلى يوم القيامة .. ويلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى لم يستخدم لفظ " نساء الأرض "، ولكنه استخدم لفظ " نساء العالمين "، أى نساء الإنس والجن وكل مخلوقات الله .. لن توجد أنثى يتكرر لها ماحدث لمريم مما اصطفاه الله سبحانه وتعالى به،وهى معجزة الميلاد من أنثى بدون ذكر[١٧١].

وكانت على نقيض ذلك امرأة لوط، وامرأة نوح، فكلتاهما لم تهتد بنور النبوة المشرق في بيتها، بل تحولت عن زوجها النبي إلى الجبهة المعادية وخانت دعوته، وكانت حرباً عليه مع الكافرين . فأصابهما ما أصابهم من عذابٍ أليم:" ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ " (سورة التحريم: ١٠)

وفي إشارة القرآن هنا ما يؤكد المسؤولية الفردية: فكل إنسان رجل أو امرأة مسؤول عن ذاته، ولن يعفيه من هذه المسؤولية شيء [١٧٢].

كذلك فإن القصص القرآني يشير إلى ضعف المرأة أحياناً أمام عاطفة الحبّ حتى إنها لتندفع في بعض الأحيان دون أن تشعر إلى ما كان ينبغي خلافه .. فقد راودت يوسف وغلّقت الأبواب .. وقالت: هيت لك .. إلى أن مكرت به حين تعفف عن متابعة الهوى الجموح وامتنع عن الإصغاء إلى داعى الشهوة والإثم والجريمة، وآثر مرضاة الله، وقال: " قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ " (سورة يوسف: ٢٣)

وفي هذه القصة تظهر وهى عاشقة ؛ وهى منتقمة لكبريائها ؛ وهى نادمة، كما صوّر لنا أيضا القصص القرآني المرأة وهى في مكان الصدارة الدولية، ملكة ذات دولة ودلال .. وذات سلطان وجلال، ولها في قومها المكان الذي اكتسبته بعقلها وحكمتها وتدبيرها قبل أن تكتسبه بملكها وسلطانها .. يتمثل ذلك في ملكة " سبأ

" وما كان بينها وبين سليمان مما ورد في قصة الهدهد إذ يقول:" إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ "(سورة النمل: ٢٣)، واستطاعت تلك الملكة أن تدبّر أمر مُلكها، وتستشير قومها إلى أن اجتمعت بنبي الله سليمان، وأسلمت معه لله رب العالمين " [١٣٣] .

وهنا تساؤل مثار حول المرأة في القصص القرآني: هل إذا خلت القصة القرآنية من المرأة يكون تلك القصة مكانها من التأثير والإثارة في نفس القارئ، شأنها هذا شأن القصة التي تطلّ فيها المرأة بوجهها ؟

في الحقيقة لقد جاءت القصة القرآنية خالية من ذكر المرأة، أو الإشارة إليها، تلميحاً أو تصريحاً، وقد تمثل ذلك في قصص كثيرة أبرزها قصص سورة الكهف، مثل قصة أصحاب الكهف، وقصة صاحب الجنتين، وقصة موسى والعبد الصالح، وقصة ذى القرنين .. وجاءت أيضاً القصة القرأنية والمرأة تكاد تكون العنصر الغالب فيها مثل قصة يوسف، وقصة ملكة سبأ، وقصة مريم ..

ومن دراسة هذين الأنموذجين من القصص القرآنى يبدو لنا في وضوح بيِّن أن وجود المرأة في القصص القرآني أو عدم وجودها، ليس له وزن في حساب هذا القصص، إلا من حيث تقرير الواقع، وما يقضى به منطق الحق في الحدث التي تصوّره القصة القرآنية وتعرضه منها، وكان لها مكانها البارز فيه كأنموذج من نماذج الحياة الإنسانية، التي تلتمس منها العبرة العظة، أما إذا لم يكن للمرأة هذا الواقع الحقيقي في الحدث، ولم يكن لها أثر في إبراز عبرة أو موعظة، فإنه لا يكون للمرأة مكان في القصة القرآنية، بحال أبداً، لأن القرآن الكريم إنما ينقل قصص من واقع الحياة الماضية، ويبعث الأحداث الغابرة من مرقدها على النحو الذي كانت عليه من قبل، وعلى ما كان لها من موقف في الحدث الذي تنقله القصة القرآنية [١٣٤] .

وليس من أهداف القصة القرآنية أن تستعرض أمثالاً لحب وهوى المرأة وعاطفتها إن لم يكن ذلك لحكمة أرادها الحق سبحانه وتعالى مثلاً وعبرةً لأولي الألباب .

٣ – الحوار في القصص القرآني:

للقصة في القرآن الكريم طريقتان:

أ) طريقة عرض الأحداث بشكل تقريري ينتقل فيه الحدث من مرحلة إلى مرحلة حتى يبلغ نهايته.

ب) طريقة الحوار .. الذي يحاول أن يمثّل فيه كل طرف من أطراف القصة، ولكل بطل من أبطالها دوره الذي يعبّر عنه بأسلوب واضح، ويثير فيها بعض القضايا التي يقف إزاءها البطل الآخر ليعبر عن دوره بكل أمانة ووضوح..

أما قيمة الطريقة الأولي، فتتمثّل في ملاحقتها للقضايا الصغيرة في التاريخ، ووقوف القاص، موقف المرشد الذي يقود تفكير السامعين أو القارئين إلى النقاط الأساسية في أسلوب يقرُب من التلقين الذي يُراد منه تعبئة الفراغ بشكل دقيق..

وأما طريقة الحوار، فإن قيمتها في محاولتها تبسيط الفكرة في جميع مجالاتها، فلا يترك أي جانب خفي فيها، لأن كل طرف من أطراف الحوار يحاول أن يثير الجوانب التي يؤمن بها ويدافع عنها..

وهناك نقطة أخري، يتميز فيها الحوار، وهي أنها تجسد الموقف فنشعر فيه بالحياة المتحركة التي تنتقل من موقف إلى موقف، ومن جوٍ إلى جوٍ وتعيش فيها الأحداث الماضية من خلال أبطالها الذين نشعر بهم، ونحن مندمجون في القصة – يتحركون أمامنا في أدوارهم وأوضاعهم كما لو كنا حاضرين معهم..

ومن الطبعي أننا لا نستطيع الحصول علي أكثر هذه الجوانب في عرض القصة بالطريقة التقريرية التي تتحدّث عن الموضوع بأسلوب الحكاية أو التقرير، وإن كانت تعطينا معرفة تفصيلية للموقف..

وربما كان هذا هو السبب في تركيز القرآن الكريم علي الحوار القصصي في أكثر من موقف، وفي أكثر من قصة من أجل التأكيد علي الصورة الحقيقية المتجسّدة المتحرّكة للتاريخ الرسالى الذي يراد له أن يرتبط بالحاضر، في عملية وحدة رسالية

رائعـة، أو للقـضايا الحيوية التي يريد القرآن الكريم إثارتها في حياة الناس وتعميقها في نفوسهم[١٧٥].

ولذلك تميز الحوار القصصي القرآني بأنه لم يكن مصدره دائماً هو الإنسان، كما هو المألوف بل اشتركت فيه عناصر متباينة:

فنجد في القصص القرآني حواراً:

بين الله والملائكة:

" وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ "(البقرة:٣٠)

" أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِـي هَـذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ " (البقرة: ٢٥٩)

وبين الله وإبليس:

" قَـالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِـينٍ قَـالَ فَاهْـبِطْ مِـنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ " (الأعراف:١٢-١٤).

وبين الإنسان والملائكة:

" وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَـصْمَانِ بَغَـى بَعْـضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَـوَاء الـصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ " (سورة ص: ٢١-٢٢).

وبين الإنسان والحيوان:

" وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ " (النمل: ٢٠-٢٢)[١٧٦].

والحوار في القصص القرآني يجري في نمط أساليبه الرفيعة . مهما كانت الأشخاص والمتحاورون، فهي مقاولة بين شخصين أو أكثر، يعبّر عن معانيها أرفع الكلام وأسماه وأعرقه في مرماه، إنه صور تُخرج خبايا النفوس، فيصوّرها خالقها من خلالها، وتكشف عن طوايا الصدور، فيعرضها الرب سبحانه علي وجهها .. ونحن حين نقف بين يدي أحد مواقف القرآن في حواره القصصي نجد المشهد كله حاضراً مشخصاً يملأ الأسماع والأبصار، ويملأ حتما تلك الفراغات والفجوات التي تقع عادة بين ثنايا الحوار وطوايا الصراع من غير تعمّل أو تكلّف أو اصطناع[١٧٧] .

ولا شك أن الحوار الذي يديره القرآن في دقة وحساسية لإحياء مشاهد القصص أو تصوير انفعالات الأشخاص قد اقتضي اتباع أسلوب اللاعنف، وطريقة اللين لأن القصة القرآنية مرتبطة بالخط القرآني الكبير، وهو الدعوة إلى الله وإرشاد الناس إلى الحق.

وإن شئنا أن نستزيد تصوراً لذلك، فلنتابع الحوار في قصة موسي عليه السلام:

الحوار في قصة موسي:

لقد كانت قصة موسي عليه السلام، في القرآن الكريم، من أكثر القصص القرآني توزيعاً في سوره، فقد ذكرت فيما يقرب من الثلاثين موضعاً أو تزيد، ولعلّ قيمتها في هذه الحياة المتحركة أبداً.. في شخصية موسي القوية التي دخلت إلى الحياة في ظروف صعبة، في أول ولادته، وفي المجتمع المقهور المستعبد في ذلك الوقت، وفي الحياة القلقة التي درج فيها في أول خطواته، مما جعله يختزن ذلك كله في كيانه، ليواجه الحياة من موقع الشعور بالقوة التي ما أن تمتد في الصراع الذي يحاول أن

يجرها بعيداً حتى ترجع إلى الله سبحانه في موقف إنابة وابتهال .. ولقد مرت حياته بمواقف صعبة جداً، قبل أن يرسله الله نبياً إلى فرعون، فحفلت بالكثير من الأحداث والمواقف .. مما ترك أثراً في شخصيته، فجعلها تهتز قليلاً في شعور خفي قلق من قوة الطغيان والكفر، المتمثلة في فرعون وسيطرته الكبيرة الممتدة في حياة أمته [١٧٨]:

حواره مع الله:

ولذلك وقف موسي – أمام تكليفه بالرسالة – في الموقف الخائف الذي يتقبّل الرسالة بإيمان، ولكنه يريد أن يستجمع – في نفسه وفي خطواته – عناصر جديدة من القوة، التي يستمدّها من ألطاف الله من جهته، ومن مشاركة أخيه له من جهة أخري. ولقد أبرز الحوار هذا الموقف العصيب الذي وقفه موسي، وهو يتلقى من الله سبحانه التكليف بالذهاب إلى فرعون لأداء الرسالة إليه.. هذا الحوار الذي تنطبق عليه قاعدة المشاهد الأربعة التي جاءت في القرآن الكريم، عن هذه المرحلة في سور " طه " و " القصص "و "الشعراء" و " النمل "، ثم الصور المجملة غاية الإجمال في " الفرقان " و " السجدة " و " النازعات "، فالتفصيل الذي تبدو فيه الصورة بكل معالمها الكبرى، ومعظم خطوطها الفرعية، تأتي في موضع ثم لا تلبث أن تتأكد هذه الصورة بتلك المعالم بصورة قريبة منها، وإن كان الإجمال يعوّض بإيراد تفاصيل جديدة، تحفظ للصورة طرافة تعينها علي استثارة الاهتمام، وبعث التشوّق والتطلّع، ثم تأتي بعد ذلك الصور التي يزيد نصيبها من الإيجاز، ليكون دورها إبراز خلاصة الحدث، وكأنه الحكم النهائي الذي يستنبطه حكمة هذا كله، وتبدأ الصورة الكبرى في سورة " طه " إذ يقول الله تعالي:

" وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى " (سورة طه:١٣-١٦).

ثم تبدأ المناجاة: " وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ

بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى" (سورة طه: ١٧-٢٣). ثم تختتم المناجاة أيضاً في سورة " طه ": " اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى" (سورة طه:٤٢-٤٧).

ثم تأتي السورة التالية، سورة القصص، أقل ترسّلا، في إيراد التفاصيل ولكن مع الحرص على جوهر الواقعة، وفي صيغة بطبيعة الحال، مخالفة للصيغة الأولي، أولا لاعتبارات الإيجاز والإجمال، ولإحداث التناسق أو الاتساق مع العبارة المستعملة في هذه الصورة، والإيقاع العام في السورة، التي هي الإطار الشامل، وتبدأ الصورة بالمناجاة، ثم تتبعها الوقائع بلا تمهيد:

" فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ " (سورة القصص:٣٠-٣٥).

والمقابلة بين ما جاء في سورة " طه "، وما جاء في سورة " القصص " تبرز تماماً، منهج القرآن الكريم في التفصيل في الموضع الذي يختاره الله تعالي، ومنهجه في

الإيجاز في الموضع الذي يختاره لذلك رب العالمين "[١٧٩] ومن ناحية أخري عرض الحلقة من القصة التي تؤدي الغرض منها وتبرزه في إطار السياق العام للسورة التي تعرض منها،" فالقصة القرآنية تخضع في طريقة عرضها للغرض المراد من هذا العرض. فهي أداة تربية للنفوس ووسيلة تقرير لمعان وحقائق ومبادئ. وهي تتناسق في هذا مع السياق الذي تعرض فيه، وتتعاون في بناء القلوب، وبناء الحقائق التي تعمّر هذه القلوب" [١٨٠].

حواره مع فرعون:

إن من أخطر مشاهد القصة القرآنية، وأكثرها دلالة علي دور هذه القصة وأعظمها امتلاء بخصائص القصة وتنوع أسلوب الحوار فيها، ذلك المشهد الذي دار الحوار فيه بين موسي عليه السلام من جانب، وفرعون مصر من جانب آخر، ففي هذا الحوار تتضح فلسفتا التوحيد والشرك، فتتصارع حجج الحق مع دعاوي الباطل، في إيجاز ووضوح، مع سرعة في الهجوم والدفاع حتى يتحوّل الموقف إلى مبارزة فكرية..، وقد جاء ذكر هذا المشهد في عدة لقطات في سور " الأعراف "، و" طه " و " الشعراء" .

وبمقارنة هذه اللقطات يتضح جلياً الفارق بين أسلوب الإفاضة والإطناب، وأسلوب الإيجاز والاقتضاب، ففي الأسلوبين، نستطيع أن نعرف جوهر الحوار والأفكار الأساسية، التي دار حولها، وموقف المتحاورين وحجة كل منهما وحالته النفسية من الهدوء والطمأنينة في جانب، والقلق والانفعال والإذلال بالقوة في جانب آخر، ولكن في الإسهاب نجد الأفكار مبسوطة وعناصرها جميعاً مذكورة، والأمثلة المتعددة كلها واردة، ويستغني عن هذا كله في مواضع الإجمال [١٨١]، ففي سورة طه نقرأ قوله تعالي:

" قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا

مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى " (سورة طه: ٤٩-٥٥) .

أ- أسلوب المراوغة في الحوار:

لقد تجاهل فرعون في – البداية – معرفة رب موسي وهارون، الذي يحملان رسالته وحاول أن يثير السؤال أمامهما عنه، كعملية إيحائية لقومه، بأن القضية لا تعدو أن تكون متعلقة بشخص منافس له غير معروف.. وكان جواب موسي كلمة جامعة تضع السائل في موقع الجهل التام، ولكن فرعون لم يستسلم وبدأ في إثارة سؤال آخر يريد به صرف الأنظار عن الجواب الذي لم يستطع مواجهته بشيء يذكر، وتوجيه الانتباه نحو قضية جانبية، تخلق جواً من الإثارة التي تعكر الأجواء ضد الرسالة والرسول، وهو موضوع القرون الأولي التي كانت تسير في غير خط الإيمان.. وكان جواب موسي، أن علمها عند الله فهو يعلم ما عملوا ويحفظه في كتاب يواجههم به يوم القيامة.. ثم أعاد موسي الحديث عن الله وخلقه السماء التي تهب الحياة للأرض مما تنزله من ماء يبعث الخصب الذي تنتفع به الناس والأنعام، ثم لخّص الدورة التي يقتطعها الإنسان في هذه الأرض، منذ بداية وجوده، إلى خروجه منها ليقف بين يدي الله.

" وهذه لفتة بارعة من موسي – النبي – يواجه بها فرعون بخلاف ما أراده من الهروب عن جو الإفاضة في الحديث عن الله خشية منه أن يؤثر موسي علي أفكار من حوله، الذين كانوا يستمعون إلى الحوار بترقب ولهفة، إذ لم يسبق لأحد أن واجه فرعون بمثل ما واجهه به موسي من دعوة وحوار" [١٨٢].

ب- أسلوب الازدراء والاستخفاف:

كما يتضح من قول فرعون لموسي في سورة الشعراء: " ألم نربك فينا وليداً، ولبثت فينا من عمرك سنين، وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكفرين " (الشعراء:١٨-١٩).

وذلك للتحقير من شأن موسي في قومه والحطّ من منزلته عندهم، فيذكره

بتربيته في قصره، ويذكره بحادث مقتل المصري في تهويل وتجسيم: " قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ " (الشعراء: ٢٠-٢٢).

ويلاحظ من ناحية التنسيق الفنيّ في التعبير: " أن حرف الفاصلة في السورة هو الميم أو النون وقبلها مد . فقوله: من المرسلين . يتمشّى موسيقياً مع الإيقاع السائد في السورة، بعكس ما لو قيل: وجعلني رسولا . ولكنه مع هذا يؤدي معني مقصوداً. وهو أنه واحد من كثيرين وأن الامر ليس بفذ ولا عجيب . وهكذا يجتمع التناسق الفني والديني في التعبير"[١٨٣].

وبذلك يتضح لنا كيف تصرّف القرآن في التلوين، وكيف يربط جو القصة مع ما هي فيه من المناسبات، ويحكم أسلوبها بكل جو يلابسها من أجواء الكلام، ويجعل جو السورة الواحدة مقياس العرض الرفيع الأنيق.. فهناك معان متقاربة بين قصة موسي في سورة " الشعراء " وقصة موسي في سورة " طه "، وقصة موسي في سورة " القصص"، وغيرها من السور، ولكن الأسلوب مختلف بين هذه وتلك، اختلاف كل سورة عن الأخري في مسلكها البياني الخصيب، وعرضها الرباني العجيب، مما يُدرك بالذوق علي تفاوته..

ومن مزايا الحركة المتنقلة بين أبعاد القصة في القرآن، ملء الفراغات التي تكون عادة بين مقاطع الحوار، حتى يشعر القارئ أو السامع أو المشاهد بأنه يعيش فعلاً مع أحداث القصة، ينتقل مع أشخاصها ويحاور أبطالها، ويشفق لهم أو منهم، أو عليهم.. فكل قصة – موقف أو مواقف تجتذب المتأمل، وتستقيد الناظر المتمهل، وتندمج في سلك الهداية الرفيعة والموعظة الحسنة..

وهذا هو السرّ في أن القرآن الكريم تارة يختصر القصة، وأحياناً يطيل في عرضها، ثم هو في موقف يأخذ بعض جوانبها، وفي موقف آخر يأخذ بعضاً بغاية الحكمة، ودقة التصوير، وجمال التقدير..

ونجد القصص القرآني الكريم يتميّز بالصدق في مدلولاته والتحقيق لمعاني ألفاظه وعباراته.. والتثبت من مفاهيم أبطاله وشخصياته .. فالشخصيات فيه

حقائق لها وجودها الذاتي ولها منطقها وسلوكها، ولها منزعها واتجاهها، ولها استقلالها وكيانها، وليس وراءها في أي مشهد ما، أو في أي موقف من المواقف يد تحركها، أو أصابع تشدها، أو " مخرج " يفصل دورها علي " قدها "، أو مؤلف يضع الكلمات في الأفواه، ويشد الشفاه بالعبارة والحوار..

من أجل هذا، كان للحوار القصصي في القرآن شأوًا بعيدًا جدًا في إحياء المشاهد التي ضم عليها الحدث القصصي، وفي إقدارها علي التأثير بالكلمة في تصوير رائع ملئ بالحركة.

ومن هنا، نستطيع أن ندرك الفرق الكبير والبون الشاسع بين القصص الأدبي الذي تتحرك فيه الأشخاص وتتحدث بما يضع القاص علي ألسنتهم من حوار، والقصص القرآني الكريم الذي يمكن القول فيه: بإنه جميعه انفعالات وانطباعات تصوّر الحق، وتتلوّن في ألوان الصدق، لما فيها من تحقيق الواقع العجيب، وتصوير الصدق القوي الذي يملأ النفوس إيماناً. ويزحم المشاعر بالإنسانية الرشيدة، والهدايات السديدة، ضرورة أنه من القرآن " الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ " (سورة هود:١).. و " إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ"(الطارق: ١٣-١٤).في ختام الحديث عن عناصر القصة القرآنية ينبغي القول: " إن من حكمة القصص القرآني عدم استيفاء العناصر في موقف واحد، بل هي موزّعة التوزيع الذي يترك في كل موقف أثره المنشود. وهذا يرتبط ارتباطاً واضحاً بمفهوم سليم.. وهو أن القصص القرآني في جملته يجري مجرى الأقصوصة لا مجرى القصة الطويلة، ومن أسرار ذلك أن تكون النفوس مشوّقة إلى استيفاء بعض العناصر، فتدرك جانبًا منها في مقام وجانبًا آخر في مقام، وهكذا حتى تستكمل القصة جميع عناصرها، ويبلغ الأمر مبلغه من المعاني المنشودة التي يستهدفها القرآن الكريم من قصصه"[١٨٤].

ثالثا: أغراض القصص القرآني

إن اشتمال القرآن الكريم علي هذه الوفرة الغزيرة من القصص الواعي المحكم،

لـيدلّ عـلي الأهمـية الكبـيرة والمكانـة العظـيمة للقصة القرآنية، وقيمتها في التوجيه النفسي، وفي الهداية إلى الحق وإلى طريق مستقيم..

ولم يكن هذا القصص سرداً مجرداً لبعض الروايات القديمة يتسلّى بها السامعون، ثـم يغفلـون عن حكايتها أو يتّعظون،... إن هذا القصص كان تاريخاً لسيرة الدعوة الدينـية، وكـيف خطـت مجـراها بين الناس منذ فجر الخليقة، وما هي العقبات التي اعترضـتها؟ وهل وقفت عندها أو تغلبت عليها؟ وماذا صنع الأنبياء بإزائها وكيف قـبلت الأمـم المدعـوّة رسـالات الله؟ أو صـدّت عـنها، بم انتهى الصراع بين الغيّ والرشد[١٨٥].

" وهكـذا قـضي سـبحانه أن تجـئ القـصة القـرآنية مـتجاوبة مـع غريزة " حب الاسـتطلاع " مـشبعة لهـا . علي صفة لا يحس فيها المستمع بضغط التكليف ومشقة الامـر والنهـي، وهكذا أصبحت القصة علي المدي الطويل لها دورها في التأثير، وفي مجري الحياة من حيث لا يشعر الإنسان "[١٨٦] .

والحكمة المنشودة من وراء هذا القصص المتنوع نقرؤها في قوله تعالى: " لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ"(سورة يوسف:١١١).

فالقـرآن كـتاب الدعوة وتاريخها. وفي ثنايا السرد التاريخي لأخبار الأولين يزداد عـرض الدعوة وضوحاً ويستبين منهجها الذي تحدو البشرية إليه، والذي لا يختلف وإن اخـتلفت العـصور وكـرّت الدهـور. وإنـنا لـنجد فيما قصّ القرآن الكريم من وصـايا الأنبياء ونصائحهم وإرشادهم لأممهم، كلاماً منسقاً، وهدياً منسجماً، صدر مـن مـشكاة واحـدة، وانـساق إلى هـدف واحـد يمهّد أوله لآخره وتصدّق نهاياته بداياتـه، وكـأنهم خطـباء فـوق منـبر واحد، مع إنه بين النبي والنبي أزمان وأزمان، وبـين الأمـة والأمـة تغـيّرت قـرى، وبادت أمصار، هذا وقد عرض القرآن الكريم قصـصاً أخري لم يكن أبطالها أنبياء ولا مرسلين، وإنما أقوام من هنا أو من هناك ممن طـواهم الدهـر ولكـن بقيت ذكراهم – إن خيرا أو شراً باقية أمام الناس ماثلة أمام

أعينهم علّهم يثوبون إلى دينهم، فالدين يهدف إلى صلاح المعتقد، وتدبير حياة الإنسان على الوجه الأتم، فليس الدين بمعزلٍ عن الحياة، وبذلك تكون القصة إحدى وسائله الكثيرة إلى أغراضه الدينية، والتي تتمثل في إبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها "[١٨٧]، فقد " تناولت القصة القرآنية جميع الأغراض القرآنية، فإثبات الوحي والرسالة، وإثبات وحدانية الله الواحد القهار وتوحّد الأديان في أساسها، ومظاهر القدرة الإلهية، وعاقبة الخير والشر، والإنذار والتبشير، والصبر والجزع، والشكر والبطر.. وكثير غيرها من الأغراض الدينية والمرامي الخلقية، قد تناولته القصة، وكانت أداة وسبيلا إليه "[١٨٨]... وفوق كل ذلك رققت القصة القرآنية ذوق العرب والمسلمين، وارتقت بأساليب البيان عندهم، ومهدت لهذه الآثار الضخمة من الكتب والموسوعات، ودواوين الشعر"[١٨٩].

وفي الحقيقة أن أول أهداف القصة القرآنية وأغراضها نستمدها من الظروف التي أوحت بهذا القصص.. فقد جاء أن " النضر بن الحارث" كان يجلس إلى الناس كما كان يجلس الرسول – عليه الصلاة والسلام – وكانت قريش تستملح حديثه، وتنصرف عن النبي، فكان طبيعياً – ومحمد – صلي الله عليه وسلم – بصدد البرهنة على أن ما جاء به حق – أن يعلمه الله سبحانه وتعالى مثل هذا القصص ليبلغه إلى قومه عساهم يؤمنون، وعن غيّهم الفاسد يرجعون، وما كان لهم – لو أنهم أرادوا وجه الحق – إلا أن يؤمنوا به ويصدقوا دعواه، محمد – صلي الله عليه وسلم – لم يكن كاتباً ولا قارئاً، ولا عُرف عنه أنه يجلس إلى أحبار اليهود والنصاري، فإذا جاء وأخبر عن أمم بادت وقرون خلت، وأسهب في قصص إبراهيم ويوسف وموسي وعيسي – عليهم السلام – أفلا يدل ذلك علي أن ما يقوله حق ؟ لقد اتخذ القرآن من هذه القصص دليلاً على أنه وحي يوحي .. ولذا كان من أغراض القصة القرآنية:

أولاً: إثبات الوحي والرسالة:

فالقرآن ينصّ على هذا الغرض نصاً في مقدمات بعض القصص أو في أعقابها

حيث جاء قوله تعالى في أول سورة " يوسف ": " إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ"(يوسف:٢-٣) .

وفي سورة " هود " التي وردت بعد قصة نوح نقرأ قوله تعالى: "تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ "(هود:٤٩).

ثانياً: الدعوة إلى الصبر والثقة في الله:

لأنه إذا عرض سبحانه وتعالى علي نبيّه سيرة أصحاب الدعوات مع أقوامهم، وما لاقوه من متاعب، وما صادفهم من أزمات انكشف غمّه وانزاح همّه، وثبت علي دعواه.. والقرآن يبرز ذلك في قوله سبحانه:" وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ "(هود: ١٢٠).

وهكذا كان الرسول – صلي الله عليه وسلم – يجد في هذا القصص صدي نفسه.

ثالثاً: التوجيه والإرشاد:

إذ لا ينكر أحد أبداً ما جاء به القصص القرآني من توجيهات دينية قد تدحض كل خلق أو عادات أو آراء زائفة .. فالقصص القرآني يتجه إلى تحقيق دعوة السماء للأرض من الإيمان بالله ورسله، وذلك بشرح العقائد وتصويرها وحسن التصرف فيها .. وقد وجه القرآن الكريم إلى هذا الهدف في جوامع من عباراته بقوله سبحانه: " وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ"(النحل:٣٦).

وهنا نري أن الله سبحانه أضاف إلى ذلك القصص، الأمر بالسير في الأرض لزيادة العظة والاعتبار، وتوجيه العباد إلى تطبيق كل ما ورد في القصص القرآني علي

الواقع الخارجي. وإرشادهم إلى أن الخير في اتباع ما يوحي إلى رسوله وما يدعوهم الرسول إليه.

رابعا: الترغيب والترهيب:

ويقترب أمر السير في الأرض بالإنذار والتخويف، فالإنذار في القصص القرآنى له معنى تهذيبي إصلاحي يهدى به الله من شاء من عباده إلى الطريق الحقّ والى صراطٍ مستقيم .. ومازلنا نمارس هذه السنة الإلهية الكريمة في نظام الكون والوجود: "أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ "(سورة الروم:٩). وهذا الغرض من أغراض القصص القرآنى يجعلنا نطرح تساؤلا حوله: إن الإنذار بالعذاب، ونحوه من أغراض القرآن الكريم في غير القصص. فما الذي يدعو إلى هذا اللون من القول. والى الحفل به والعناية بأمره والجواب: إن ذلك لحق. ولكن الذي يجب التنبيه عليه والالتفات إليه، هو أن للقصص من التأثر على النفوس بمقتضى فطرها ما ليس لغيره من ألوان القول، فهو لون يبيّن أن ما نذر الله سبحانه به من العذاب قد وقع لمن جحد- وعَنَدَ- ونزع عن رحابة الإيمان وعمق العقيدة، وأصالة الحق، إلى ضنك الباطل وزيف الضلال[١٩٠].

خامساً: إبراز وحدة الدعوة بين الأنبياء:

إذ أن المدقق في القصص القرآني بقلب عامر بالإيمان وإعمال سليم للعقل لابدّ أن يشعر أن من أهمّ أهداف هذا القصص القرآني إبراز حقيقة عقيدية مهمة تتضح خلال السرد التاريخي وهي أن الأنبياء والرسل جميعاً عليهم صلوات الله وسلامه جاءوا بكلمة واحدة وقضية واحدة علي تتابع الأجيال . كلمة واحدة هي: لا إله إلا الله. وقضية واحدة هي: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره..

هذا الهدف من أهم أهداف القصص القرآني في الحقيقة، يبدو بارزاً شديد البروز من خلال السرد القرآني، وتتخذ له وسائل شتي:

أ- فأحياناً يوحد أسلوب القصص (مع التنويع الواضح في القرآن) بحيث تجئ العبارة موحدة علي لسان كل رسول، في الشريط المتتابع للرسل:

كل رسول يقول الكلمة ويمضي، ويأتي من بعده بنفس الكلمة بلا تغيير.

ب- وتارة يقال عن قوم معيّنين أنهم كذّبوا " الرسل " مع إنهم لم يرسل إليهم إلا رسول واحد، ليوحي التعبير بأن تكذيب الرسول الواحد هو بمثابة تكذيب الرسل كلهم.

جـ- وتارة يقال عن أقوام متعمدين إنهم عَصَوا " رسول " ربهم، فيوضح ذلك أن كل أمة كذّبت رسولها، ويوحي في ذات الوقت أنه كأنما هو رسول واحد الذي بُعث إلى هذه الأقوام جميعاً، لأنهم – علي اختلاف أقوامهم، وأزمانهم وأماكنهم ولغاتهم – قد قالوا ذات القضية.. ومن هنا فالرسل جميعاً كأنهم رسول واحد يتكرر لكل قوم من الأقوام..

فمن أمثلة النوع الأول ما جاء عن الرسل في سورة الأعراف، وسورة هود، وسورة الشعراء بصفة خاصة: " لقد أرسلنا نوحا إلى قومه . فقال: يقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم... وإلى عاد أخاهم هودا . قال يقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون .. وإلى ثمود أخاهم صلحاً قال يقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم ءاية .. وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . وقد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان "(الأعراف:٥٩-٨٥)[١٠٠].

ومن أمثلة النوع الثاني سورة الشعراء: حيث جمعت بين الوسيلتين، إذ وحّدت قول الرسل كلهم في عبارة واحدة يكررها كل رسول، ثم جعلت كل قوم بمفردهم يكذّبون " المرسلين " جميعاً، بتكذيبهم للرسول الخاص الذي أرسل إليهم . وكذلك ما جاء في سورة الفرقان عن قوم نوح من أنهم كذّبوا " الرسل " مع أنهم كذّبوا رسولهم الخاص وحده وهو " نوح " ولكن ذلك بمثابة تكذيب الرسل جميعاً:

" وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا"(الفرقان: ٣٧).

ومن أمثلة النوع الثالث ما جاء من أنباء ثمود وعاد، وفرعون، والمؤتفكات، في سورة الحاقة: " كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ وَجَاء فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً " (الحاقة: ٤-١٠).

والتعبير – وإن كان يُفهم منه أن كل فرقة من هؤلاء قد عَصَت رسولها- إلا أن اللفتة فيه واضحة، أن الرسل كلهم الذين أرسلوا إلى فرعون، ومن قبله، والمؤتفكات قد جمعوا في رسول واحد، لأن مهمتهم كلها واحدة، وقضيتهم كلها واحدة .. فكأنهم رسول واحد تكرر بعثه لكل فرقة منهم في حينها ..

وكذلك ما جاء في سورة الشعراء عن " موسي وهارون " معاً، أنهما " رسول " رب العالمين: " قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ " (الشعراء: ١٥-١٧).

وليس هناك لبس على الإطلاق في أن المتكلم اثنان معاً لا واحد، لأن الأمر صادر إليهما معاً: " فقولا "، ولأنهما يقولان: " أرسل معنا بني إسرائيل" فموسي وهارون يتكلمان معاً .. وحتى لو فرضنا أن موسي وحده الذي يتكلم باسميهما معاً فهو يقول " إنا " ولا يقول " أنا " .. أي أنه يتكلم بضمير المثني لا المفرد، ومع ذلك يقول " إنا رسول رب العالمين " لأنهما – وهما شخصان – يقومان بمهمة واحدة ورسالة واحدة فكأنهما رسول واحد [١٩٢].

سادساً: وحدة المعارضة:

ومن الأهداف المهمة، الموازية في أهميتها لقضية وحدة الرسالة ووحدة الرسل، إبراز الموقف الموحّد الذي تقفه الجاهليات جميعاً من رسلها الذين أرسلوا إليها .. فكما أنها رسالة واحدة مكررة، وإن اختلف الأشخاص واللغات، والزمان والمكان:

- " كَـذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ" (الذاريات:٥٢-٥٣).

وهكـذا نـري أنه دور واحد تقوم به الجاهلية دائماً إزاء هذه الدعوة البسيطة غاية البـساطة، الخطـيرة غايـة الخطـورة .. دعوة لا إله إلا الله .. والقرآن يبرز هذا الدور إبـرازاً تامـاً في قصص الأنبياء .. وقد كان من أهداف هذا الإبراز ولا شك أن يقال للرسـول – صـلي الله عليه وسلم – وللمؤمنين: إن ما تفعله بكم جاهلية قريش من اضطهاد وتعذيب، هو عينه الذي صنعته كل جاهلية من قبل في التاريخ .. ثم كانت الـنهاية دائـماً هـي انتـصار الحـق، وهزيمة الباطل والعذاب للمكذبين، ولنقرأ قول الحق تبارك وتعالى حيث يقول:

" فَكَذَّبُـوهُ فَأَنجَيْـنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ"(سورة الأعراف: ٦٤) (نوح عليه السلام)

" فَأَنجَيْـنَاهُ وَالَّـذِينَ مَعَـهُ بِـرَحْمَةٍ مِّـنَّا وَقَطَعْـنَا دَابِـرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ" (الأعراف: ٧٢) (هود عليه السلام).

" فَأَخَـذَتْهُمُ الـرَّجْفَةُ فَأَصْـبَحُواْ فِي دَارِهِـمْ جَاثِمِـينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْـتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِـحِينَ" (الأعراف: ٧٨-٧٩) (صالح عليه السلام).

" فَأَنجَيْـنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ " (الأعراف: ٨٣-٨٤) (لوط عليه السلام).

" فَأَخَـذَتْهُمُ الـرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِـيهَا الَّـذِينَ كَذَّبُـواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ " (الأعراف:٩١-٩٣) (شعيب عليه السلام).

كـان هـذا هـدفاً قائماً بالنسبة للمؤمنين إزاء اضطهاد قريش لهم وقت نزول هذا القـرآن .. ولكـنه هدف قائم أبداً طالما كانت في الأرض جاهلية من أي نوع، ودعاة يعلنون دائماً: لا إله إلا الله، فيضطهدون ويعذبون ويقتلون . [١١٣].

سابعاً: مؤازرة النبي وإمداده بالمعجزات:

ويـضاف إلى أهـداف القـصص القرآني تأييد النبي – صلي الله عليه وسلم – فيما اصطفاه الله له من الرسالة، ولهذا التأييد هدف آخر غير هدف التثبيت والتسرية،فإن التثبـيت هـدف يـتجلّى في تحمّـل الشدائد، ومقابلة الأذى بقلب ثابت، والصبر علي المكـاره.. أمـا التأييد فيتصل بالتحدّي بالغيب، والإعجاز بمعرفة تفاصيل لا يطّلع علـيها إلا عـلام الغيوب.. فهو يوحي بها إلى من يصطفيه من عباده: " وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَـيْكَ وَرَحْمَـتُهُ لَهَمَّـت طَّآئِفَـةٌ مِّـنْهُمْ أَن يُـضِلُّوكَ وَمَـا يُـضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا " (سورة النساء:١١٣)[١١٤].

ثامناً: بيان الأصل المشترك

بين دين " محمد " ودين إبراهيم بصفة خاصة ثم أديان بني إسرائيل بصفة عامة، وإبراز أن هذا الاتصال أشدّ من الاتصال العام بين جميع الأديان . فتكرّرت الإشارة إلى هذا في قصص إبراهيم وموسي وعيسي:

" إِنَّ هَـذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى" (سورة الأعلى: ١٨-١٩)" أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى "(سورة النجم ٣٥-٣٨)" إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ" (سورة آل عمران: ٦٨) " مِّلَّةَ أَبِـيكُمْ إِبْـرَاهِيمَ هُـوَ سَـمَّاكُمُ الْمُـسْلِمِينَ مِن قَبْلُ " (سورة الحج:٧٨) و " وقفينا علي ءاثـرهم بعيـسي ابـن مريم مصدقاً بين يديه من التورة ..... إلى قوله تعالى " وَأَنزَلْنَا

إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ"(سورة المائدة ٤٦ -٤٨).

تاسعاً: بيان نعمة الله علي أنبيائه وأصفيائه

كقصص إبراهيم وموسي وعيسي، وسليمان وداود وزكريا ويونس، فكانت ترد حلقات من قصص هؤلاء الأنبياء تبرز فيها النعمة في مواقف شتي، ويكون إبرازها هو الغرض الأول، فمن تقدير القرآن الكريم لحياة سيدنا إبراهيم وبيان نعم الله عليه، قوله سبحانه: " وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ "(البقرة:١٣٠).

وإن للسادة الصوفية شرحاً جميلاً لكلمة " الصالحين " حينما ترد، في مثل هذه المقامات، أنهم يقولون: " الصالحون للحضرة الإلهية، فيكون معني الآية الكريمة: وإنه في الآخرة لمن الصالحين، لحضرتنا .. هذا وقد أتت عدة أوصاف لإبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم نذكر منها:

- إنه كان مسلماً: أي أسلم وجهه لله وأخلص له العبادة.
- وإنه كان أمة: والأمة والجماعة من كان علي الحق ولو كان وحده فهو قدوة يقتدي بها في الحق، وهو إمام.
- وإنه كان قانتاً: والقانت هو الخاضع الخاشع.
- وإنه كان حنيفاً: والحنيف هو الذي لا ينحرف ولا يميل ميل نزعات أو ميل شرك.
- وإنه كان حليماً.
- وإنه كان أواهاً: والأواه كثير التأوه، وذلك يعني رقة القلب .
- وإنه كان منيباً: والمنيب هو الراجع إلى الله في كل أموره.
- وكان شاكراً لأنعم الله، وأنه في النهاية كان خليل الله . يقول سبحانه: " وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً" (النساء: من آية ١٢٥) [١٦].

عاشراً: الدعوة إلى التفكّر وإعمال العقل:

ومن أهداف القصص القرآني إيقاظ العقل ليفكّر ويستنبط . يقول تعالى " فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" (سورة الأعراف: ١٧٦).. وهكذا إن كان الإمتاع هدفاً للقصة مطلقاً، فان القرآن الكريم يضيف إلى متعة العين والأذن، متعة العقل بالتفكير، ومتعة القلب بالصبر والثبات، علي أن ينتهي ذلك كله بالعمل الذي يتوّج المكلّف به حياته[١٩٦].

وهناك هدف من أهداف القصص القرآني، ربما لم يكن منصوصاً عليه في القصص ذاته، ولكنه مفهوم من سياق القصص أولاً، ومنصوص عليه كذلك في مواضع أخري من القرآن، كما جاء في أول سورة العنكبوت:

" الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ" (العنكبوت: ١-٣).

إن القصص القرآني يقول لنا – من خلال السياق – إن الابتلاء هو سنة الله للمؤمنين ثم يقول إن الله هو الذي يضع المؤمنين في الابتلاء بقدر منه .. ويضع الطغاة في موضع الغلبة بقدر منه، حتى إذا جاء أمر الله جاء النصر للمؤمنين بقدر من الله، ووقع الهلاك بالمكذبين بقدر كذلك من الله [١٩٧].

الحادي عشر: التحذير من الغواية واتّباع الشيطان:

ومن أهم أغراض القصص القرآني ذلك الغرض الذي يرمي إلى تنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان، وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم آدم، وإبراز هذه العداوة عن طريق القصة أروع وأقوي، وأدعي إلى الحذر الشديد من كل هاجسة في النفس تدعو إلى الشر، وإسنادها إلى هذا العدو الذي لا يريد بالناس الخير [١٩٨].

الثاني عشر: التربية والتهذيب:

قصص القرآن متناسق في منهجه التربوي مع منهج القرآن، فهو تطبيق بالمثال الحي لهذا المنهج المتكامل، ذلك أن القرآن بقصصه ومواعظه وتوجيهاته العقائدية

والتشريعية وحدة متناسقة، وإن تنوعت طرقه في التبليغ، والتعليم قصد الإمعان في التأثير، وتجديد نشاط النفس بتجدد انتقاله في السورة الواحدة من غرض إلى آخر، مع ارتباط وثيق بالمحور العام الذي يجمع تلك الأغراض علي اختلافها .. ولهذا كانت الوسائل والأهداف في القصة القرآنية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً، فبحيوية العرض في القصة، وقوة التخييل والتصوير فيها، وتهيئة اللحظة الحاسمة التي تبلغ فيها حرارة الانفعال النفسي درجة الانصهار، يحصل من التأثير بالتوجيه التربوي مالا يحصل عند إقحام ذلك التوجيه علي النفس وهي في راحتها واسترخائها، أو في انطلاقها وتحررها. ففي قصص القرآن إذًا تربية دينية لها أثر عميق في النفوس مصدرها: عقيدة تضم الخالق والإنسان والكون، وتقوم علي أساس أن كل خلق كريم هو في ذلك الشعور الباطن، وهو الإيمان بالله الذي جعل الكون معرضاً رائعاً تتجلي فيها حقيقة الألوهية بآثارها، وتملأ جوانب الإنسانية بآياتها: " فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ " (سورة يونس: ٩٨).

والحقيقة التي يؤكدها القصص القرآني أن موازين القيم والأخلاق مرتبطة بميزان الله. فالكفر ظلمة وضلال، والإيمان نور وهداية، فلا إصلاح بغير عقيدة، ولا تربية بغير إيمان " ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور " (سورة النور: ٤٠).ولذلك كان للقصة القرآنية دوراً عظيماً في تربية العقيدة وتعهدها وتنميتها، إذ ليست الغاية من التربية سوي تكوين العواطف الصالحة، ولكن هذه العواطف لا تصبح أساساً للخلق الكريم إلا إذا تحولت إلى اتجاهات يكون ينبوعها الدائم هو العقيدة، مصدر الإيمان والخير والأمن "[٢٢].

ولقد واجه " إبراهيم " قومه الجاحدين المشركين بحجة ألهمه الله إياها، وهي أن من يخلص لله لا يخاف من دونه، فهو أحق بالاطمئنان والأمن من الملحد والمشرك، " وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ " (الأنعام: ٨١-٨٢).

الثالث عشر:

وللقصص القرآني أهداف وأغراض أخرى كريمة لا تغاير ما أشرنا إليه وما أسلفنا الكلام فيه، وكلها تتّصل بالأغراض الرئيسة والأهداف الحقيقية، ومنبثقة عنها في معني هداية القرآن الكريم، فهي فروع لتلك الأغراض والأصول، وهي تتجه في جملتها إلى ناحيتين:

أ- ناحية تتصل بهدف التوحيد والإيمان السليم . وذلك هو التوكل علي الله والاعتزاز به . وهو في عرضه القرآني مما يحقق الأسوة الصالحة، والقدوة الطيبة، ويملأ النفس المطمئنة بالعزة بالله واللجوء إلى حماه، ففي حوار الأنبياء مع الكفار نجد فيضاً من التوكل، وغمراً من الإيمان والتبتل، فنقرأ في قصة نوح ما ذكر الله سبحانه في سورة يونس إذ يقول: " وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ"[٢٠٠] (سورة يونس ٧١-٧٢).

وفي قصة إبراهيم، ما هو أعجب، وهي متفرقة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، كما تفرقت من قبلها قصة نوح. ففي سورة الشعراء دار هذا الحوار بينه وبين قومه: " قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ" (سورة الشعراء: ٧٥-٨٢).

ولننظر في مرأى آخر من جوانب ذلك الحوار .. وكيف انتهي أمره مع قومه إلى أن يلقوه في النار، ولمن كانت العاقبة؟ وما مدي استهتارهم به وبدعوته: " قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ

اللهَّ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ" (سورة الأنبياء (٦٦- ٧٠).

أما توكّل " موسى " على ربه فقد أضفى توكلاً عجيباً لمن آمن معه فقالوا لفرعون – كما يقصّ سبحانه في سورة طه: " قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى" (سورة طه: ٧٢- ٧٣).

ب- وأما الناحية الأخرى من تلك الأهداف الفرعية المنبثقة من الأغراض الرئيسة لقصص القرآن، فهي تعليم الأدب في الحوار، والمناقشة مهما غلظ المجرمون الكفار، وتصوير الذوق والرقة، والتلطف والعطف.. ولقد تجلي هذا المعني سافراً في قصة موسي إذ أرسله الله سبحانه إلى فرعون بسلطان مبين ومعه أخوه هارون .. وزودهما بقوله العظيم وتوجيهه الرشيد الحكيم: " اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى" (سورة طه: ٤٣-٤٤).

ولقد صوّر الله سبحانه خلق المرسلين في هذا المعني الكريم في عدة مناسبات في جوامع الكلمات، إذ يقول سبحانه في بعض ذلك: " أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ " (سورة إبراهيم:٩-١٠).

يتّضح من هذه المحاورات أن المرسلين يقابلون كل غلظة وجفوة، وكل شدّة في الخطاب وقسوة، بكل أدب رفيع وسلوك كريم، وتوجيه صادق كريم، ومعرفة أمينة دقيقة وتسامح ورحمة جديرة أن تحول كل عناد إلى انقياد، وأن تردّ كل غواية

إلى أدب وهداية .. وذلك من الدروس المستفادة والعبر الصادقة الحقّة التي يجب أن نـرتفع بمـستوانا إلـيها، ونخلق بسلوكنا معها في المعاملة وفي التفاهم والمخالفة وفي كـل شؤون الحياة .. وهكذا يكون القرآن وقصصه هداية ورعاية، وموعظة وعبرة، وأسوة وقدوة [٢٠١].

الدعوة والقصص القرآني:

مـن خلال قصة إبراهيم وحواره مع أبيه تستمدّ الدعوة الإسلامية أول أسلحتها وهـو سـلاح الحكمة: " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا" (مريم ٤١-٥٠).

تـبدو في هـذه الحلقـة مـن القصة شخصية إبراهيم الرضيّ الحليم.. تبدو وداعته وحلمه في ألفاظه وتعبيراته وفي تصرفاته ومواجهته للجهالة من أبيه، كما تتجلّى رحمة الله بـه وتعويـضه عن أبيه وأهله المشركين ذرية صالحة تنسل أمة كبيرة، فيها الأنبياء وفـيها الـصالحون. وقد خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ينحرفون عن الصراط الذي سنّه لهم أبوهم إبراهيم ، هم هؤلاء المشركون [٢٠٢]..

" واذكـر في الكـتب إبـراهيم" التذكير هنا إغراء وسلوى للرسول صلي الله عليه وسلم، ثم إنه التذكير بإبراهيم عليه السلام بالذات:

(أ) لأنـه أبـوهم . (ب) والمـشركون مقـرون بنـبوّته وحقيّة رسالته .. فهي نقطة

اتفاق يضعها الداعي بين أيدي المدعوين ليلتقوا معه عليها، فيكون ذلك أدعي للإصغاء إليه والإقبال عليه.. ثم تلخّص الآية الكريمة عناصر القوة في شخصيته: " إنه كان صديقاً نبياً" .. إذاً فهو يتقدم إلى ساحة الدعوة ومعه أسلحته.. إيماناً وخلقاً وحكمة، فمن مظاهر حكمته عليه الصلاة والسلام مناداته لأبيه: ياأبت. فحق الأبوة يفرض عليه ألا يناديه باسمه المجرد، وحق الدعوة يتقاضاه أن يكون في خطابه رفيعاً رقيقاً، ولذلك لم يقل يا أبي، وإنما: يا أبت، بما تحمله زيادة التاء من زيادة بر ومودة، ثم أنه يكررها أكثر من مرة، وذلك ليخفف بالتكرار من حدّة والده، وليفرض عليه بها إحراجاً يمنعه من مبادرته بالثورة، أو تأخيرها علي الأقل..

ثم يتجه إبراهيم إلى مخاطبة عقل أبيه: " يا أبت إني قد جاءني من العلم مالم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً ".. وبعد ذلك يتجه عليه السلام إلى وجدان أبيه ليهزه بعمق: " يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً" .

ويلاحظ هنا أن إبراهيم عليه السلام لا يريد الضغط علي قلب أبيه بالتخفيف ليفجره تفجيراً، لكنه فقط ينبّه، يضئ شمعته، فلعلها تنير الطريق. والآيات التالية توضح لنا ذلك:

أ- لم يؤكّد إبراهيم عليه السلام وقوع العذاب .. وإنما هو فقط يخاف وقوعه..

ب- ثم إنه يخاف من العذاب أن " يمسّه " لا أن يسحقه.

جـ- ويخاف أن يمسّه من قِبَل " الرحمن " ولا يقول من " الجبار " مثلاً.

أي أنه لا يضغط بعنف، لكنه يعبر الطريق إلى قلبه برفق ولين، لعله يلين..

يقول ابن القيّم تعليقاً علي موقف إبراهيم: وتأمّل قول إبراهيم الخليل لأبيه: " يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً" .. فابتدأ خطابه بذكر أبوّته الدالة علي توقيره، ولم يسمّه باسمه. ثم أخرج الكلام معه مخرج السؤال: فقال لم

تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً، ولم يقل: لا تعبد . ثم قال: " يا أبت إني قد جاءني من العلم مالم يأتك".. فلم يقل له: إنك جاهل لا علم عندك، بل عدل عن هذه العبارة إلى ألطف عبارة تدل علي هذا المعني فقال: " جاءني من العلم مالم يأتك" ثم قال: " فاتبعني أهدك صراطاً سوياً" .. ثم قال: " يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً " فنسب الخوف إلى نفسه دون أبيه، كما يفعل الشفيق الخائف علي من يشفق عليه، قال:" يمسك" فذكر لفظ المسّ الذي هو ألطف من غيره، ثم نكّر العذاب، ثم ذكر الرحمن..

وهذه الحكمة في معالجة الموقف شاهد صدق علي ما يجب أن يتحلّى به الداعية من خصائص لولاها لما أتت الدعوة أُكُلَها – بل إن الداعية حيث يتجرد منها يكون عبئاً علي الدعوة لا سند لها..

تواضع الداعية:

وفي التعبير بقوله تعالى: " عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا " تواضع يتوّج هامة الداعية الذي يرجع كل شيء إلى الله تعالي، ولا يقطع بما سيكون عليه، بل يتركه لتقدير الله تعالى وذلك قوله: " عسي ألا أكون " وإذا كان قوله: " شقياً " تعريضاً بأبيه وقومه، فإنه الأسلوب الممسك بالخيط فلا يقطعه فلعل فرصة قريبة تُتاح للعودة إليه .. ولا نغفل قوله " وأعتزلكم " ولم يقل " واعتزلك " رعاية لمشاعر الأبوة.. وتقديراً من الابن لوالده مهما كانت درجته من الجحود والجمود..

ونري من هذا كلّه كيف يتخذ الاستدراج طريقاً لإثبات الدعوى، وذلك بأن يبدأ الخطيب في إلقاء الريب في نفوس من يخاطبهم، ثم يلقي إليهم ببعض ما تنتجه الأدلة مغضياً النظر عن النتائج الحقيقية السليمة التي تنتجها البراهين، حتى إذا اطمأن إلى أنه قد أخذ بزمام الجماعة يقودها حيث شاء، ألقي إليهم بالنتائج كلها لبراهينه، والاستدراج كما رأينا يكون في المقامات الخطابية التي يكون الخطيب فيها متصدياً للدعوة لأمر لم تألفه الجماعة، أو لفكرة تناقض أمراً اتفقت عليه..

إن إبراهيم عليه السلام كمسلم ينزّه لسانه عن الفحش، ثم هو كداعية مأمور أن

يـتلطّف بالمدعو لا سيما إذا كان أباه، وأن يرتّب الكلام في أحسن اتّساق وأن يسوقه أرشق مساق[٢٠٣].

وأخيراً: إذا وضعنا في حسابنا هذا كله كان لنا في النهاية أن نجمع خيوطاً عديدة يمـثل كـل مـنها غرضاً مهماً من أغراض القصص القرآني، ولكن هذه الخيوط كلها تلتقـي عـند نقطـة واحدة، وتتجاذب لدي عقدة موحدة، تلكم هي الناحية الدينية، والدعـوة إلـيها بتلك الطريقة المهذبة الوعظية، ولا غرو فقد خاطب القرآن الكريم بهـذا القـصص حاسـة الـوجدان الدينـية، بلغـة الجـمال الفنية، فإذا أدركنا أن الفن والـدين صـنوان في أعـماق النفس، وقرارة الحس أدركنا أيضاً مدي ما وصلت إليه هـذه الأغراض من نجاح، وأي نجاح " وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ" (سورة يوسف:٢١)."

لقـد وعى القرآن قصص الأولين مع أنبيائهم، وجدّد علي الناس ذكرها، وذلك لكـي يـداوي عللاً متشابهة، ويطب أمراضاً متماثلة، ومن أجل هذا كثُرت القصص لتُحـصي جملـة كبـيرة من الأمراض الاجتماعية، وتستأصل جرثومتها بصنوف العبر وشـتى الـنذر، إن القرآن وهو يقصّ أنباء الأولين يحوّلها إلى دواء سائل عام، يسكب من قطراته علي نفوس المعاندين يبغي شفاءها دون نظر إلى تراخى القرون واختلاف المخاطبين[٢٠٤].

" إن القـصص القـرآني دروس في العقيدة،دروس في حقيقة لا إله إلا الله .. وإن كـان ثـوبه ثـوب القصة، وإن كان فيه من الجمال التعبيري والتصوير الفني ما يأخذ بالألباب"[٢٠٥]..

(١) د. محمد حسين هيكل: ثورة الأدب، ص ٦٩، دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٧٨.

(٢) د. الطاهر أحمد مكي: القصة القصيرة ص ٧٢، دار المعارف، القاهرة، ط ٤، ١٩٨٥.

(٣) د. محمد حسين هيكل: ثورة الأدب. ص ٧٠.

(٤) وقد تمثلت هذه العناصر عند " هوميروس " في ربط " داعية الألم Pathos " (وهى الفعل الذي يُهلك أو يُؤلم، وما إلى ذلك مما تسوقه المصائر ويكون مثار الرحمة) بالمخاطرات التي قامت بها الشخصيات في " الأوديسيا " وقد مهد كذلك للقصص الخيالية النثرية – ما قام به شعراء المآسى اليونانية منذ " يوربيدس " من ربطهم العنصر العاطفي بالأحداث التي يسوقونها، غيبية كانت أم إنسانية . . ومن جهة أخرى عمد المؤرخ اليونانى " كسينوفون Xonophon " إلى خلط الخيال بالتاريخ فيما يُشبه القصة، في تأريخه لملك الفرس " كورش " في كتابة " كوربيديا " ...

انظر: د . محمد غنيمى هلال: النقد الأدبي الحديث، ص ٤٦٤ – ٤٧٠ بتصرف، دار نهضة مصر، القاهرة، بدون تاريخ .

(٥) من المعروف في الملاحم القديمة مسخ الإنسان إلى حيوان أو شجرة أو حجر . وقصة " أبوليوس " عنوانها " الحمار الذهبى " وفيها تم مسخ " لوسيوس " إلى حمار ثم عودته إلى حالة الإنسان على يد كاهن للإلهة " إيزيس".

انظر: د. محمد غنيمى هلال: النقد الأدبي الحديث . ص ٤٦٧ . هامش ٢ .

(٦) د. محمد غنيمى هلال: النقد الأدبي الحديث . ص ٤٧٧-٤٧٨ .

(٧) على شلش: في عالم القصة، ص ١٩٥ – ١٩٦ .

(٨) د. محمد غنيمى هلال: النقد الأدبي الحديث . ص ٤٩٢ .

(٩) على النجدى ناصف:القصة في الشعر العربى إلى أوائل القرن الثانى الهجرى ص ٤ –٥، دار نهضة مصر، بدون تاريخ، وانظر القصة العربية القديمة، للأستاذ محمد مفيد الشوباشي ـ ص ٥٨ .

(١٠) محمود تيمور:دراسات في القصة والمسرح، ص ٦٥، المطبعة النموذجية، القاهرة بدون تاريخ .

(١١) على الجندى ناصف: القصة في الشعر العربى، ص ٤ .

(١٢) د. محمد أبو الأنوار: من قضايا الأدب الجاهلى، ص ٣، ٨ مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٧٦ .

(١٣) المرجع السابق، عن البيان سنة ١٩١١ مقال " الانتقاد " لطه حسين ".

(١٤) د. على النجدى: في تاريخ الأدب الجاهلى ص ٢٥٨، دار المعارف، القاهرة سنة ١٩٨٤ .

(١٥) صادق إبراهيم عرجون: الحياة الأدبية عند العرب قبل الإسلام، بينى وبين الأستاذ محمد فريد وجدى، ص ١٨-١٩، مطبعة الإرشاد، القاهرة، سنة ١٩٣٦ .

(١٦) د . محمد أحمد العزب: عن اللغة والأدب والنقد . رؤية تاريخية . . وروئية فنية، ص ٣٨٩ ، طـ ١ . دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠ .

(١٧) سيد قطب: النقد الأدبي . أصوله ومناهجه ص ٧٦، دار الفكر العربى، القاهرة، بدون تاريخ .

(١٨) د . الطاهر أحمد مكى: القصة القصيرة ص ٧٧ -٧٨، دراسة ومختارات، دار المعارف، طـ ٤ . القاهرة، ١٩٨٥ .

(١٩) المرجع السابق. ص ٩٦ .

(٢٠) المرجع السابق . ص ٩٦.

(٢١) د. مصطفي علي عمر: القصة وتطورها في الأدب المصري الحديث ص٢١، دار المعارف. القاهرة ١٩٨٢.

(٢٢) د . الطاهر أحمد مكي: القصة القصيرة .. ص ٧٨

(٢٣) د . رشاد رشدي: فن القصة القصيرة، ص ٥٤، طـ ١ . مكتبة الانجلو . القاهرة، سنة ١٩٥٩

(٢٤) د . محمد غنيمى هلال: النقد الأدبي الحديث، ص ٥٢٦ .

(٢٥) على شلش: في عالم القصة، ص ١٩١، طـ ١ . مطبوعات دار الشعب - القاهرة ، سنة ١٩٧٨ .

(٢٦) د . محمد غنيمى هلال: النقد الأدبي الحديث، ص ٥٢٧ .

(٢٧) صبرى حافظ: الخصائص البنائية للأقصوصة ، ص ٢٨ . مجلة فصول . المجلد الثانى . العدد السابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢ .

(٢٨) المرجع السابق . ص ٢٩ .

(٢٩) المرجع السابق . ص ١٨٧ .

(٣٠) د. الطاهر أحمد مكى: القصة القصيرة . . . ص ٧٥ .

(٣١) سيد قطب:النقد الأدبي . أصوله ومناهجه، ص ٨٠ . دار الفكر العربى، القاهرة، بدون تاريخ .

(٣٢) د . محمد مندور: الأدب وفنونه . ص ٩٨ . دار نهضة مصر، جـ ٢، القاهرة بدون تاريخ .

(٣٣) جورج برناردشو: دراسة السوبرمان البرجوازى ص ١٥٦ -١٥٧، مقال لكريستوفر كودويل . تقديم وترجمة: إبراهيم حماده . مجلة فصول . المجلد الخامس العدد الثالث، سنة ١٩٨٥ .

(٣٤) د. محمد حسين هيكل: ثورة الأدب،ص ٧٧ .
(٣٥) المرجع السابق، ص ٧٤ .
(٣٦) د. مصرى عبد الحميد حنورة: الأسس النفسية للإبداع الفنى في الرواية، ص ٢٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة، سنة ١٩٧٩ .
(٣٧) د . محمد غنيمى هلال: النقد الأدبي الحديث، ص ٤٨١ بتصرف .
(٣٨) المرجع السابق، ص ٤٨٢ بتصرف
(٣٩) المرجع السابق، ص ٤٨٣ بتصرف.
(٤٠) د. فاطمة الزهراء: العناصر الرمزية في القصة القصيرة ص٢٠، دار نهضة مصر للطبع والنشر. القاهرة، سنة ١٩٨٤ .
(٤١) محمود تيمور: دراسات في القصة والمسرح ص ١٦٢- ١٦٧ بتصرف، المطبعة النموذجية . القاهرة، بدون تاريخ.
(٤٢) المرجع السابق، ٨٩.
(٤٣) ابن منظور: لسان العرب . مادة قصص .
(٤٤) أبو هلال العسكرى: الفروق اللغوية ص ٢٩ – ٣٠، دار الكتب العلمية – بيروت لبنان، بدون تاريخ، ضبطه وحققه حسام الدين القدسي .
(٤٥) هو عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن القشيرى الشافعي، أحد أئمة الدنيا في الفقه والأصول والتفسير، توفي سنة ٥١٤ بنيسابور
(٤٦) الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى: البرهان في علوم القرآن، ص ١٧٧، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . المجلد الثانى، مكتبة دار التراث، الطبعة الثالثة
(٤٧) عبد الكريم الخطيب: القصص القرآنى في منطوقه ومفهومه ص ٤٥ ، دار الفكر العربى . القاهرة، سنة ١٩٦٥ .
(٤٨) محمد قطب: منهج الفن الإسلامي. ص ١٥٨ . دار الشروق. القاهرة ط٤. ١٩٨٠ .
(٤٩) سورة الحجرات . الآية ٦ . وانظر محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص ١٥٩ – ١٦٠ ترجمة عباس محمود – مصر ١٩٥٥ .
(٥٠) د . التهامى نفرة – سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٢٢١ – الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧٤ .
(٥١) المرجع السابق، ص ٢٢٢ .
(٥٢) محمد متولي الشعراوي: معجزة القرآن، ص ٢٠٠، جـ ٣، كتاب اليوم، العدد ١٨٧ –١٥ يونيو ١٩٨١ .
(٥٣) سيد قطب: في ظلال القرآن . الملجد الرابع ص ٢٢٨٩، طـ ١٢، دار الشروق، القاهرة، سنة ١٩٨٦ .

(٥٤) محمد متولى الشعراوى: معجزة القرآن، ص ٢٠١ .
(٥٥) سيد قطب: في ظلال القرآن . المجلد الرابع ص ٢٢٩٠.
(٥٦) محمد متولى الشعراوى: معجزة القرآن، ص ٢٠٣ .
(٥٧) سيد قطب: في ظلال القرآن . المجلد الرابع ص ٢٢٩٢ .
(٥٨) المرجع السابق .
(٥٩) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٢٤٣، ٢٤٤.
(٦٠) محمد قطب: منهج الفن الإسلامي، ص ١٥٧ .
(٦١) سيد قطب: ظلال القرآن . المجلد الثاني، ص ٨٧٤.
(٦٢) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٣٣١ / المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط٣، بيروت، ١٩٨٥.
(٦٣) التكوين (٤ : ١ – ١٧)
(٦٤) سيد قطب: في ظلال القرآن . المجلد الثاني ص ٨٧٧- ٨٧٨.
(٦٥) علي شلش: في عالم القصة، ص ٢٩، ط ١ . مطبوعات الشعب، القاهرة، ١٩٧٨ .
(٦٦) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن ص ٣٣٤-٣٣٥.
(٦٧) د. عبد المجيد عابدين: الأمثال في النثر العربي القديم، ص ١٥٨، ط١، دار مصر للطباعة . القاهرة، ١٩٥٦
وانظر كذلك د. بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن ص ٢٣١، دار الشروق ط٢، القاهرة ١٩٧٦ .
(٦٨) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٢٤٥ – ٢٤٨.
(٦٩) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الرابع، ص ٢٢٧٠.
(٧٠) سيد قطب: في ظلال القرآن . المجلد الرابع، ص ٢٢٧٠.
(٧١) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٣٥٠ – ٣٥١.
(٧٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الرابع، ص ٢٢٧١.
(٧٣) ابن قيم الجوزية: روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ص ١٦٩ .
وانظر: د. محمد حسن عبد الله: الحبّ في التراث العربي ص ٠١٢ عالم المعرفة (٣٦). الكويت سنة ١٩٨٠ .
(٧٤) المرجع السابق، ص ١٣ .
(٧٥) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٣١٣.
(٧٦) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ٧٥، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٧٤ .
(٧٧) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الرابع، ص ١٩٨٠ .

(٧٨) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ٧٥.
(٧٩) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الرابع، ص ١٩٨١.
(٨٠) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٣١٤.
(٨١) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ٨٣.
(٨٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجد الرابع، ص ١٩٨٣.
(٨٣) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ٨٧.
(٨٤) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٣١٥
(٨٥) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ١٣٩.
(٨٦) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٣٢٥ – ٣٢٦.
(٨٧) محمد قطب: منهج الفن الاسلامي، ص ١٥٧.
(٨٨) د. محمد فتوح أحمد: الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، ص ٣٦، دار المعارف مصر، ١٩٧٠.
(٨٩) Encyclopedia Britannica . Vol. 21 P. 701 1956. Year
(٩٠) Charles chadwich: symbolism . P. 6 first publication Britain 1977.
(٩١) سيد قطب: في ظلال القرآن . ج ٣، ص ١٢٤٧.
(٩٢) د. فتحي أحمد عامر: المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، ص ٢٦٦ – ٢٦٧، منشأة المعارف . الاسكندرية، ١٩٧٦.
(٩٣) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ٣٨.
(٩٤) محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص ٩٩ و ١٠٩.
(٩٥) سيد قطب: في ظلال القرآن، جـ ٣، ص ١٢٤٧.
(٩٦) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٤١، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧٥.
(٩٧) د. السيد تقي الدين: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم، ص ١٨٩ دار احياء الكتب العربية . القاهرة، ١٩٨٤.
(٩٨) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٣٥٠.
(٩٩) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الرابع، ص ١٩١٣.
(١٠٠) د . بكرى شيخ أمين: التعبير الفنى في القرآن، ص ٢٢٣ – ٢٢٤ .
(١٠١) د . السيد تقى الدين: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم، ص ١٩٠ .
(١٠٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الخامس، ص ٢٦٧٩، وراجع قصة مولد موسى في سورة القصص، آيات ٣ –١٢ .
(١٠٣) راجع القصة في سورة الكهف: الآيات ٥٩ – ٨١ .

(١٠٤) سيد قطب التصوير الفنى في القرآن: ص ١٥٠ –١٥٣ .
(١٠٥) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد السادس، ص ٣٦٦٦ – ٣٦٦٧ .
(١٠٦) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الخامس، ص ٢٦٤٢وانظر أيضا: التصوير الفني في القرآن ص ١٥٤ .
(١٠٧) انظر سورة الأحقاف: آية ١٥ .
(١٠٨) انظر سورة الإسراء: آية ٧٨ .
(١٠٩) انظر سورة البقرة: آية١٨٥، وآية ١٩٧ .
(١١٠) انظر سورة القصص: آية ٧٨ .
(١١١) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ، مجلة عالم الفكر، ص ١٢ –١٤ .
(١١٢) راجع سورة يونس آية ٦، وسورة الفرقان آية ٦٢، وسورة لقمان آية ٢٩، وسورة المءمنون آية ٨٠ .
(١١٣) محمد إقبال: تجديد التفكير الدينى في الإسلام، ص ٥٦ –٧٥ .
(١١٤) د . عبد الصبور شاهين: الدلالة العميقة في الكلمة القرآنية، ص ١٥، مجلة منبر الإسلام، المجلس الأعلى للشيءون الإسلامية، العدد ١٠ – السنة ٤٥، ١٩٨٧ م .
(١١٥) محمد إقبال: تجديد الفكر الدينى في الاسلام، ص ٦٥ .
(١١٦) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد السادس، ص ٣٤٤١ .
(١١٧) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٥٩ .
(١١٨) د . عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ . عالم الفكر، ص ١٥ –١٦ .
(١١٩) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٦٠.
(١٢٠) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ . مجلة عالم الفكر، ص ١٦ –١٧.
(١٢١) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٦١.
(١٢٢)سيد قطب: ظلال القرآن، المجلد الأول، ص٨٠.
(١٢٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الأول، ص ٨٠ .
(١٢٤) محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص ١٧، ١٨.
(١٢٥) د. فؤاد علي رضا: علوم القرآن، ص ١٩٠ . لبنان ط٢، ١٩٨٣.
(١٢٦) سورة الإسراء: آية ١ .
(١٢٧) راجع القصة في سورة هود.
(١٢٨) راجع القصة في سورة المؤمنون.
(١٢٩) سورة مريم: آية ٥٦، وسورة الأنبياء ؛ آية ٨٥.
(١٣٠) سورة الأنبياء: آية ٨٥.
(١٣١) سورة الدخان: آية ٣٧، وسورة ق ؛ آية ١٤.

(١٣٢) سورة الفرقان: آية ٣٨؛ وسورة ق آية ١٢.
(١٣٣) راجع القصة في سورة يس: آيات ٢٠ إلى ٢٩.
(١٣٤) راجع سورة التوبة: آية ١٢٠، والأحزاب: آية ١٣.
(١٣٥) راجع سورة آل عمران: آية ١٢٣؛ والانفال: آية ٣٤.
(١٣٦) راجع سورة التوبة: آية ٢٥.
(١٣٧) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ، ص ١٩.
(١٣٨) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ، مجلة عالم الفكر، ص ١٩-٢٠.
(١٣٩) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٢٧٧.
(١٤٠) أبـو عبد الله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي: تفسير القرطبي . الجامع لأحكام القرآن، جـ ٦، ص ٤٠٧٢. كتاب الشعب . القاهرة.
(١٤١) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ، مجلة عالم الفكر،ص٢١.
(١٤٢) سيد قطب: في ظلال القرآن: المجلد الأول، ص ٢٦٤ – ٢٦٥.
(١٤٣) د. السيد تقي الدين: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم، ص ١٨٩ – ١٩٠.
(١٤٤) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٦٤.
(١٤٥) د. بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن، ص ٢٢١.
(١٤٦) د. فؤاد علي رضا: من علوم القرآن، ص ١٩١.
(١٤٧) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٣٦٠.
(١٤٨) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٦٦.
(١٤٩) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ: مجلة عالم الفكر، ص ٣٠.
(١٥٠) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ . مجلة عالم الفكر، ص ٣٠-٣١.
(١٥١) د. محمد غنيمي هلال: النقد الادبي الحديث: ص ٥٣٠، ٥٣٣.
(١٥٢) د. بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن، ص ٢٢٢.
(١٥٣) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٣٦٤-٣٦٦.
(١٥٤) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن: ص ١٦٤-١٦٥.
(١٥٥)المرجع السابق. ص ١٦٥-١٦٦.
(١٥٦)د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٣٦١، ٣٦٩.
(١٥٧) د. بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن، ص ٢٢٢-٢٢٣.
(١٥٨) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ: مجلة عالم الفكر، ص ٣٦-٣٧.
(١٥٩) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٦٦-٦٧.
(١٦٠) د. عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ، مجلة عالم الفكر، ص ٣٧.
(١٦١) عباس محمود العقاد: المرأة في القرآن، ص ٥٥، دار نهضة مصر، القاهرة.

(١٦٢)د. علي عبد الواحد وافي: المرأة في الإسلام، ص ٣٩، دار نهضة مصر ط٢، القاهرة، ١٩٧٩.

(١٦٣) د. محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم، ص ٢٤٧، مكتبة الانجلو، ط٤، القاهرة، ١٩٧٢. حيق يقول: " إن المعاني الأدبية والفنية هي مقصود القرآن من القصص، وهي الأمور التي يبحث عنها، وهي الأمور التي تجعل الحادثة الواحدة تصور بصور مختلفة، ويعبر عنها بعبارات متفاوتة حسب الظروف والمناسبات .

(١٦٤) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤٠٠-٤٠١.

(١٦٥) د. فؤاد علي رضا: علوم القرآن، ص ١٩١.

(١٦٦) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٧٠.

(١٦٧) سيد قطب: في ظلال القرآن: المجلد الخامس، ص ٢٦٧٩.

(١٦٨) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤٠١.

(١٦٩)سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد السادس، ص ٣٦٢١.

(١٧٠) ورد اسم " مريم" في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص٦٦٥. وضعه محمد فؤاد عبد الباقي. دار الفكر.ط٢، القاهرة ١٩٨١.

(١٧١) محمد متولي الشعراوي: معجزة القرآن، ص ٣٧٨.

(١٧٢) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤٠٢.

(١٧٣) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص٧١.

(١٧٤) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ٣و ٤.

(١٧٥) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٢١٥ -٢١٦ .

(١٧٦) والخوض في الطريقة التي جرى بها الحوار بين هذه العناصر المتباينة لا يجدي. وقد استشكل بعض المفسرين ولا سيما علماء الكلام منهم خطاب الرب سبحانه وتعالى للشيطان في هذا التحاور الطويل، واختلفوا فيه: هل هو خطاب بواسطة الملائكة كالوحي لرسل البشر؟ أم بغير واسطة وكيف؟ وهل يقتضي التكريم؟ وهل ما قصّه القرآن على لسان الهدهد تخييل أو تمثيل أو تعبير بلسان الحال؟ .. إن محاولة الإجابة على مثل هذه التساؤلات تفضي إلى التحكم، والإيمان يدعونا إلى التسليم بأن ما جاء في هذا الحوار حق، دون البحث في كيفيته. انظر: د. التهامي نفرة . سيكولوجية القصة في القرآن. ص ٤١٤.

(١٧٧) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٧٣ و ٧٥.

(١٧٨) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٢٦٣.

(١٧٩) فتحي رضوان: القصة القرآنية، ص١١٩،١١٨، كتاب الهلال، عدد ٣٣٢، دار الهلال، القاهرة،١٩٧٨.

(١٨٠) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الخامس، ص ٢٦٧٦.

(١٨١) فتحي رضوان: القصة القرآنية، ص ١٣٥.
(١٨٢) محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن، ص ٢٦٧ – ٢٦٨.
(١٨٣) سيد قطب: في ظلال القرآن . المجلد الخامس، ص ٢٥٩١.
(١٨٤)السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٧٨-٧٩.
(١٨٥)د. حفني محمد شرف: إعجاز القرآن البياني، بين النظرية والتطبيق، ص ٢٩٣، المجلس الأعلي للشيءون الإسلامية، الكتاب الرابع، القاهرة ١٩٧٠.
(١٨٦) د. محمود محمد عمارة: الدعوة من خلال القصة القرآنية، مجلة منبر الإسلام ص١٢، العدد ١١ . المجلس الأعلي للشيءون الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٨.
(١٨٧) د. حفني محمد شرف: إعجاز القرآن البياني: ص ٢٩٣ –٢٩٤.
(١٨٨) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٢٠.
(١٨٩) فتحي رضوان: القصة القرآنية، ص ٨.
(١٩٠) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ٩٦.
(١٩١) انظر سورة هود من ٢٥: ٨٤، وسورة الشعراء من ١٠٥: ١٨٠ .
(١٩٢) محمد قطب: دراسات قرآنية ص ١٠٢ – ١٠٤، دار الشروق، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٨٣.
(١٩٣) محمد قطب: دراسات قرآنية، ص ١٠٩.
(١٩٤) انظر: السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن. ص ١٠٦.
(١٩٥) انظر: د. عبد الحليم محمود . في رحاب الأنبياء والرسل. كتاب اليوم. ص ١٠٩. العدد ٢٩٤. القاهرة ١٩٨٩.
(١٩٦) د. محمد محمد عمارة: أصول الدعوة من خلال القصة القرآنية، منبر الإسلام (١١).ص ١٣.
(١٩٧) محمد قطب: دراسات قرآنية، ص ١١٠ – ١١١ .
(١٩٨) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٢٧.
(١٩٩) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٥٤٣ – ٥٤٧.
(٢٠٠) سورة يونس: ٧١ – ٧٢.
(٢٠١) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ١١٠ و ١١٨.
(٢٠٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الرابع، ص ٢٣١١.
(٢٠٣) د. محمود محمد عمارة:أصول الدعوة من خلال القصة القرآنية . منبر الاسم ص ٧٢-٧٤. العدد (١١١).
(٢٠٤) د. حفني محمد شرف: إعجاز القرآن اليانى، ص ٢٩٦ – ٢٩٧.
(٢٠٥) محمد قطب: دراسات قرآنية، ص١١١.